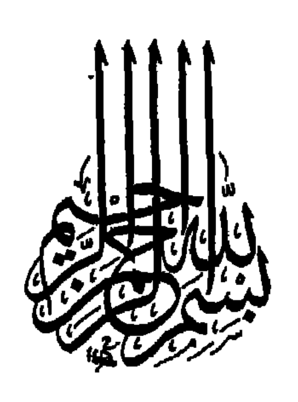
الانحرافات السلوكية
الأسباب والعلاج



الانحرافات السلوكية
الأسباب والعلاج



صباح عبّاس

الانحرافات السّلوكية
الأسباب والعلاج

دار البيان العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دار البيان العربية

الرويس - خلف سنتر محفوظ وحجازي - بناية محمد الحريبن
ت ٨٢١١٤٢ـ٨/٧/٨٢٣٥٢٦ـ٨٢٣٠٨٩ ص ب ٩٧/ ٢٥ و٥٧٨٩/ ١١٣ بيروت لبنان

الإهداء

إلى المصباح المتوقّد بشعاع الإيمان ، الذي أضاء لي درب الحياة ، وبصّرني الحق ، وألهمني حبّ العقيدة ، وحثّني على العطاء والتضحية

إليك يا أعظم أم أهدي هذا الجهد المتواضع متمنّية منك القبول

صباح

المقدمة

لعلّ من أهمّ التحدّيات التي تواجهها الشخصية في هذا العصر .. هو التحوّل السريع الذي لا تكاد تستوعبه الشخصية ، وتنسجم مع مراحله السريعة ، ذلك لأنه آخذ بالتسرّب والاتّساع في كلّ مجالات الحياة الأخلاقيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والإقتصاديّة بل طال بدوره منظومة القيم التي تحملها الشخصيّة وتُسلِّم بها .

ونتيجة لهذا التحوّل الذي لامس مجرىٰ الحياة اليوميّة ، ترك آثاره السيّئة علىٰ حياة الشخصية ، بدءاً بنمط التفكير لديها ، وطريقة التعامل مع الآخرين ، وفن الكسب ، والحصول على الامتيازات في حقلي الاجتماع

والإقتصاد بأساليب مستحدثة ، لم تألفها الشخصية وتمارسها من قبل .

فيوماً بعد يوم بدأت الشخصية تدرك حجم المشكلة التي تزداد اتساعاً وبازدياد اتساعها ، ارتفعت نسبة الخوف لديها والقلق بشأن الحاضر والمستقبل ، وشعرت بعدها أنّها بحاجة ملحّة للرجوع إلىٰ منابعها الإسلامية ، وقيمها الأصيلة الثابتة التي لا تتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان ، لتكون بمثابة الوقود الذي يلهمها التحدّي والثبات في عصر الحداثة السريع المحفوف بالمخاطر والصّعاب .

وهذه الدراسة . . هي مساهمة متواضعة ، أرجو من خلالها أن أكون قد وفقت للمساهمة في توضيح بعض المشاكل الحياتيّة التي تواجه الشخصية ، ووضع بعض الأفكار والمعالجات الحيّة المستنبطة من وحي الذكر الكريم باعتباره المصدر الأول للثقافة الحيّة النورانيّة ، كما أسهبت في الحديث حول الدوافع المنشّطة لممارسة السلوك الانحرافي في مجالات النفس والأخلاق والاجتماع والتطرق لأساليب اعتدال الشخصية وقوامها في الحياة المعاصرة .

وفي الختام لا يسعني الحال إلاّ أن أشكر أفراد أسرتي لإتاحتهم الفرصة لي للبحث والاطّلاع والذي اقتطع بدوره

وقتاً لهم عليَّ . . فقدّروا ذلك وصفحوا عن تقصيري تجاههم ـ فاطمة ـ إيمان ـ محمد ـ حسن .

صباح عبّاس/ السعودية

صفوى/ ٢٥ شوال ١٤١٣ هـ

الفصل الأول
سيكولوجية الشخصية

إن الحديث عن الانحرافات السلوكية يجرّنا تلقائياً لتناول البحث حول السلوك السويّ ، إذ لا يمكننا بحال أن نفصل العلاقة بينهما ، أو أن نطمس نور الحقيقة الذي يتضح بالمقارنة بين ما هو سوي وما هو شاذ ، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النور والظّلام ، وبين السلب والإيجاب ، فالحديث عن الضدّ والنقيض كشف لأغوار الطرف الآخر من السطح حتى العمق .

ونستطيع أن نشخّص الحالة المرضيّة ، من خلال

معرفتنا طبيعة الحالة السويّة لنحدد في ضوء ذلك درجات الانحراف ، وخطورة الشذوذ التي تتمثل في الطّباع والميول والرغبات والسلوك .

أولاً ـ معرفة الذات :

تتبلور أنماط السلوك الظاهر للشخصية عبر قناعاتها الفكريّة في فهم الأشياء وإيمانها العميق بقيمة ما تحمل من مفاهيم فكريّة تتجسّد عبر مجموعة من الظواهر والممارسات السلوكية ، ويحدد هذه القناعة السمات النفسيّة المتباينة والمتناظرة في فهم الشخصيّة لنفسها فهماً واقعياً بعيداً عن المغالاة والقصور وعدم نسج الواقع الوهمي والمتصنّع حول إمكاناتها وقدراتها ، لأنها حينئذ ستصاب بداء الكِبر والزّهو والخيلاء ، وهذا تحديداً ما حدث لفرعون ، ـ ذوالشخصية المرضية ـ حيث نطق بتصريح خطير كما جاء على لسان الآيات ١٥ ـ ٢٤ في سورة النازعات : ﴿ **هل أتاك حديث موسىٰ * إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوىٰ * إذهب إلىٰ فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكّى * وأهديك إلى ربّك فتخشىٰ فأراه الآية الكبرى * فكذّب وعصىٰ * ثم أدبر يسعىٰ * فحشر فنادىٰ * فقال أنا ربكم الأعلىٰ** ﴾ .

وقد ينعكس الأمر تماماً ، فينظر الإنسان إلى ذاته بأقل

من حجمها ، فينظر إليها نظرة العجز والضعف ، ويجهل بذلك حقيقة قدراته وإمكاناته ، وهنا يختلّ التوازن الحقيقيّ لمعرفة الإنسان بحقيقة نفسه إذ يحكم عليها بالذلّ والهوان ، فيفقد بعد ذلك قيمته الجوهرية ، جاء في الحديث الشريف : « رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » إذ أن القيمة في معرفة الإنسان قدره وحجمه كما هو .

ثانياً ـ الانسجام مع الواقع :

إن فهم الشخصية للواقع الذي تعيشه ومواجهته بواقعية ، سمة أخرىٰ تحافظ علىٰ توازن الشخصية في البناء السلوكي ، إذ أن الشذوذ عن هذا الفهم هو مدعاة لسقوط الشخصية في متاهات لا نهاية لها .

فالشخصية السويّة تدرك حقيقة الواقع الذي تعيشه ضمن أطره وحجمه ، فلا تتجاوزه أو تهرب منه إلىٰ غيره ، لأنّه ليس في ذلك سعادة تؤمل ، بل هو مقدمة لمشاكل لا تنتهي . فالشخصية حين لا تنسجم مع واقعها ، ولا تتكيّف معه ، وهٰذا منشأ سمة المثالية والوهمية في نمط التفكير والسلوك .

ثالثاً ـ التكيّف مع الآخرين :

يقتضي التكيف مع الآخرين تكوين شبكة علاقات بين الشخصية والمحيط الاجتماعي ضمن إطار الحب المتبادل والإنسجام ، والتكيّف من علامات الصحة والنضج في الشخصية . فالشخصية السويّة ترفض الانغلاق على الذات والانطواء والاحتجاب عن الناس ، فهي تتمتع بعلاقة طيّبة مع الوسط الاجتماعي، وتمتلك الإيثار بتقديم حاجات الآخرين علىٰ إشباعها لحاجاتها ضمن دائرة الحبّ والاحترام .

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

« ألا وأنّ المؤمنين إذا تحابّا في الله عزّ وجل ، وتصافيا في الله ، كانا كالجسد الواحد ، إذا اشتكى أحدهما من جسده وجد الآخر ألم ذلك »[1] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام :

« المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إن اشتكىٰ شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٢٨١.

واحد »[1] .

فهذه .. دعوة صريحة على لسان الأحاديث تدعو الشخصية إلىٰ إنشاء علاقة طيّبة ومتينة مع المحيط الاجتماعي ، في سبيل التكيّف والانسجام مع أفراد هذا المحيط . فالفرد ينبغي أن يمثّل الجماعة ، والجماعة تمثّل الفرد وكلاهما يعاضد الآخر ، لتكوين علاقة متبادلة عمادها الحب والاحترام والثقة .

رابعاً ـ الإحساس بالثقة :

ويعني ذلك شعور الشخصية بالاستقلال والثقة بقدرتها على إدارة شؤونها بمفردها دون مساندة من أطراف أخرى ، إلا في حالات الضرورة ، وقيامها بواجباتها وتحمّل مسؤولياتها ومختلف أدوارها في الحياة بمفردها دون أن تطلب عوناً ومساعدة في مجال تخصصها . إضافة إلى ذلك امتلاكها الجدارة والقدرة على تسيير أمورها وقضاياها .

فعلى الرغم من وجود حالة الثقة إلاّ أنّها في المقابل قادرة بالفعل على القيام بأعبائها كافة بمفردها دون شعور منها بالقصور الذاتي حين ممارسة عملها ، أو أي عمل آخر

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٢٦٨.

تنوي القيام به .

خامساً ـ الثبات في مواجهة المشاكل :

التجلّد والتماسك في مواجهة المشاكل سمة أخرىٰ من سمات الصحة النفسية للشخصية السويّة فهي لا تمتلك القوة والتماسك في المواقف الطبيعية فحسب ، بل تمتلكها في المواقف غير الطبيعية التي تواجهها وتصطدم بها على أرض الواقع من مشاكل وآلام ومصائب ، ولا ينال من تجلّدها وصلابتها شيء ، بل على العكس تماماً فهو يزيد من قوّتها وثباتها .

قال تعالىٰ :

﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] .

ولا تتوقف سمات الشخصية في قوتها وثباتها في مواجهة نكبات الدهر ، بل إنها تسري إلى سلوكها العام ، لتمثل طابعها السلوكي في نمط التعامل مع مختلف الشرائع

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧ .

الاجتماعية التي تتعامل معها بالسلوك العقلاني اليقظ والمتبصّر . ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[1] .

.. ويقصد بالتجلّد والتماسك (النضج الانفعالي) الذي هو في تصوّر علماء النفس تكامل الشخصية من حيث استجابتها للمنبّهات المختلفة التي تواجهها ، بحيث تبدو متماسكة في تصرفاتها : فلا تجنح إلى (النكوص) الطفولي الذي يعني ارتداداً إلى أساليب عاطفية غير رصينة مثل البكاء والعناد والدلال ونحوها من أشكال السلوك البدائي ، كما لا تجنح إلى الحساسيّة المفرطة في مواجهتها للمثيرات ، بقدر ما تتميّز بالجلد والصبر والتأنّي ومدارسة الأمر بهدوء ورصانة وتبصّر ونحو ذلك .

ويمكن القول : أنّ (النضج الانفعالي) يمثّل الطّابع العام للسلوك السويّ الذي لا يصاحبه أيّ اضطراب نفسي : أياً كانت درجته ونوعه ، بحيث يوازن ما يُصطلح عليه بـ (الطابع العقلي) مقابل (الطابع العاطفي) .

وبالرغم من أنّ كلاً من (العقل) و (العاطفة)

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

يتجاذبان سلوك الشخصية ، إلاّ أنّ الفارق بينهما هو في طغيان أحد الطابعين على الآخر « فالناضج » هو الذي (يتحكّم) في انفعالاته ويسيطر عليها من خلال تسليط الأضواء (العقلية) عليها ، أما غير الناضج فتسيطر (عاطفته) على سلوكه بحيث تجده إمّا ثائراً منفعلاً أو منسحباً إلى الداخل ، وفي كلتا الحالتين يتعامل مع العنصر العاطفي أكثر منه مع العنصر العقلي[1] .

سادساً ـ الهدفية في الحياة :

ترتبط السمات السابقة ، بسمة أساسية وهي الهدفية في الحياة ، بمعنىً أن ترسم الشخصية لنفسها منهجاً تسلكه وتحدّد لنفسها موقعاً من الحياة ، بالموازنة بين ما تستطيع فعله ، وما يمكنها إنجازه ، في سبيل نيل أهدافها وطموحاتها .

فالشخصية المرضيّة التي لم تحدِّد لنفسها موقعاً وموقفاً من الحياة ، لن تحقق أيّ مكسب ولا تنجز أيّ عمل ، وستبقىٰ ضائعة في سلك الغافلين والتائهين حتى يدركها الأجل .

---

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي: ج٢، ص١٠. د. محمود البستاني.

وهنا دعوة صريحة إلى الشخصية لإعادة حساباتها من جديد لتحدّد ماذا تريد ؟ وماذا تصنع ؟ وأين موقعها الذي اختارته لنفسها من سلم الأهداف والطموح ؟

* * *

السلوك السويّ

قد تربطك علاقة مع أحد زملائك في دائرة العمل ، فتحدّثه عن شؤون المكتب وهموم الموظفين ، وتزداد علاقتك به لتطلعه على أمورك الشخصية ، فيحدث منه لسبب ما لا يمكنك توقعه بأن يفضح سرّك ، ويخلق لك مشاكل لم تكن في الحسبان مع مدير الدائرة ، وقد ينتهي الأمر بك إلىٰ خصم مرتبك أو إقالتك من وظيفتك ! !

وربما وضعت ثقتك في شخص تقرّبه إلى نفسك ، تكاشفه بكل أسرارك ، فتصطدم بعدها بخيبة أمل في أقرب الناس إلى قلبك ! !

. . قد تحدث هذه الحالات ، وأخرىٰ مشابهة ، علىٰ أنها في النهاية تكشف عن نماذج من النّاس يعانون من

اضطرابات نفسية وحالات مرضية بشكل ما بعيدة كلّ البعد عن الحالة السويّة .

وفي عصر التحضّر والعصرنة ، والتوجّه إلى التطوّر التكنولوجي والسباق العلمي ، انخفضت الرعاية ، وتقلّص الاهتمام بكلّ ما يخصّ الكائن البشري نفسياً وسلوكياً واجتماعياً ، فرصدت الآلاف من الجنيهات والدولارات للتسلح النووي والتفوّق العسكري . بهدف قتل الإنسان بعد استلابه حرّيته ، أو استعباده ضمن الأوامر التي يتلقّاها من أسياده صانعي الحضارة ! وأية حضارة ؟!

أما الكائن الآدميّ . . فأين موقعه من كلّ هذا ؟

في ظل الحكم الإستبدادي ، وتحت النظام الدكتاتوري ، وبقوة الحديد والسّيف ، فقدَ الإنسان إنسانيّته ، وصار أقرب إلى البهيمية ، وخير مثال نختاره هنا . . سياسة الرقّ والاستعباد : تلك التي اجتاحت القارة السوداء ، حتى سلّم الإنسان الإفريقيّ قانعاً بعدم قدرته على العيش بحريّته ، منفصلاً عن جبروت الزّعيم الأبيض الذي يسوقه كما تُساق النعاج !!

فتحت سياسة الرقّ ، أو تحت تطوّر الجهاز الآليّ ، ازدادت نسبة الانحرافات والشُّذوذ ، وتفاقمت الويلات ،

وتضخّمت الجرائم والحوادث ، وتجاوزت بذلك كلّ معايير القيم والأخلاق ، كإفرازات طبيعية لعدم الاستقرار السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعي فتراكمت على شكل كتل من الهموم والآلام التي يعجز عقل الإنسان وفكره عن تحمّلها واستيعابها .

ولو جنّدت بعض الطاقات لدراسة البنية الإنسانيّة ، ووضعت الحلول الجذريّة للمشاكل التي تواجه الفرد العصريّ ، لتمَّ التغلّب على الأمراض النفسيّة التي بدورها تمثّل فتيل العبوة المدمّرة لحياة الفرد والمجتمع ، ولساد عالمنا الأمن والحريّة والسلام .

. . وبعد كل ما أنتجه العالم من تطور في المجال الصناعيّ ، وانحسار في المجال الإنساني ، كان من الضروري البحث في المجال الثاني ، فالوضع لا يتطلب المزيد من المضاعفات الخطرة على مستوى السلوك الإنسانيّ ، فكانت المبادرات في ميادين علم النفس والاجتماع والتربية لإيجاد معالجات سريعة وعاجلة لمشاكل قائمة ، على أن هذه العلوم لم تتوصل حتى الآن إلى ما أقرّه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمن ، فربطت بين الإنسان والمحيط الاجتماعي ، وكيف يتفاعل الفرد مع المحيط ؟

وكيف يؤثّر ويتأثّر ؟ و . . و . . ؟ ولم تتوصّل إلى الحقيقة الأهمّ وهي تمتين العلاقة بين الإنسان وخالقه بل ولم تسدّ ثغرة الفراغ الروحي الذي يمثّل محور الارتكاز بين الهداية ، والضلال ؟

علاقة الإنسان بخالقه وعلاقته بالآخرين

حين نرجع إلى الآيات القرآنية ونمعن النظر جيداً ، فإننا نرىٰ بأن الآيات القرآنية تركّز على علاقة الشخصية الآدمية ضمن محورين أساسيين هما :

المحور الأول / علاقة الشخصية بخالقها

المحور الثاني/ علاقتها بالآخرين .

وكلا المحورين يحقق سلامة البنية النفسية للشخصية الآدمية وسلوكها السوي في نظر الإسلام .

قال تعالىٰ :

١ ـ ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك علىٰ هدىً من ربّهم *

وأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

٢ ـ ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله * إن الله بما تعملون بصير ﴾[2] .

٣ ـ ﴿ . . . واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشّر المؤمنين ﴾[3] .

٤ ـ ﴿ إنّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾[4] .

٥ ـ ﴿ . . . إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة . . ﴾[5] .

٦ ـ ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾[6] .

٧ ـ ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضّرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ .

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٠.
(٣) سورة يونس، الآية: ٨٧.
(٤) سورة طه، الآية: ١٤.
(٥) سورة فاطر، الآية: ١٨.
(٦) سورة فصلت، الآية: ٤١.

٨ ـ ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقّاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١] .

٩ ـ ﴿ يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر علىٰ ما أصابك ، إنَّ ذلك من عزم الأمور * ولا تصعّر خدّك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً إن الله لا يحبّ كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[٢] .

١٠ ـ ﴿ . . . وآتي المال على حبّه ذوي القربى واليتامىٰ والمساكين . . . ﴾[٣] .

١١ ـ ﴿ . . . وبالوالدين إحساناً وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب . . ﴾[٤] .

. . هذه النماذج من الآيات توضح طبيعة العلاقة بين

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٢ ـ ٤ .
(٢) سورة لقمان، الآيات: ١٧ ـ ١٩ .
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧ .
(٤) سورة النساء، الآية: ٣٦ .

الشخصية وخالقها ، وبين الشخصية والآخرين ، فالنموذج الأول يفلسف العلاقة بين الشخصية وخالقها من خلال الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ إيماناً خالصاً لا يشوبه أدنىٰ شك . والإيمان الكامل بالكتب السماوية والرسل والملائكة واليوم الآخر ، وتتجسّد هذه العلاقة وهذا الارتباط بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ودعاء الشخصية لنفسها وللآخرين ، والتجلّد والصبر والتقوىٰ والخشية من الله سبحانه وتعالىٰ مما تستوجب الراحة النفسية وتجلب الاستقرار والاطمئنان القلبي الذي تستشعره الشخصية في أعماقها مما ينمّ عن حالة التوازن بين مجموعة الأفكار التي تحملها عقلية الشخصية وقناعاتها ، وبين ممارستها للسلوك السوي عبر علاقاتها مع الآخرين بالإحساس بهم ، وعدم إظهار التعالي والتكبّر على الغير ، وضرورة التواضع في المعاملة ، ووجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والوفاء بالعهد ، والتزام الوقار والسكينة ، ومراعاة التوسّط والاعتدال .

إضافة إلىٰ ذلك . . إن بعض الآيات تفسّر لنا حقيقة الرّبط بين العلاقتين الأولىٰ والثانية ، إذ أن علاقة الشخصية بالآخرين هي امتداد لعلاقتها مع الله سبحانه وتعالىٰ ، ففي

سورة لقمان تتضح هذه الحقيقة وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ . . . يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم * ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدّنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون ﴾[1] .

توضح هذه الآيات الربط الصريح بين الإيمان بالله وعدم الشرك به ، وبين برّ الوالدين وعدم الإساءة إليهما **﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه ﴾** ، والربط بين شكر الله علىٰ نعمه ، فأكبر نِعَمهِ تعالىٰ وجود أبوين عطوفين فوق رأس طفلهما يرعيانه ويشبعانه العطف والحنان ، وشكر الوالدين علىٰ معروفهما ومجهودهما المتواصل من أجل راحة طفلهما وسعادته .

﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ﴾ :

وإنما قرن شكرهما بشكره لأنّه الخالق المنشىء وهما السبب في الإنشاء والتربية كما جاء في تفسير مجمع البيان

---

(١) سورة لقمان، الآيات: ١٣ ـ ١٥ .

للشيخ الطبرسي ص ٤٩٤ الجزء ٨ .

والمحصلة أنّ السلوك السويّ في نظر الإسلام هو ربط الشخصية ضمن محورين هما علاقة الشخصية بخالقها ، وعلاقتها بالآخرين . أما علماء النفس فاهتموا بالعلاقة الثانية اعتقاداً منهم أن المشاكل النفسيّة سببها اجتماعي في الأصل ، وأن المجتمع هو الذي يصنع الجنون كما ذكر ذلك الدكتور (رمضان محمد القذافي) في كتابه (علم النفس العام) ص ٢٢٤ ، أما العلاقة الأولىٰ فلا وجود لها في مصطلح العلوم النفسيّة الحديثة .

المجتمع المادي . . والعقد النفسية

وهنا يعترضنا سؤال مفاده . . ما هي المضاعفات الناتجة وراء الإهمال الحقيقيّ لعلاقة الإنسان بخالقه ؟ وما هي طبيعة الإفرازات التي خلّفتها هذه الحجب للمحور الأول علىٰ واقع الفرد والمجتمع ؟

تتجلّىٰ هذه المضاعفات في المجتمعات الماديّة بشكل واضح وضوح الشمس ، فالمشاكل التي تعصف بعقل الإنسان ، وتفقده القدرة على التحكّم في نمطه السلوكيّ ، وتشوّش رؤيته للأحداث ، فلا يرىٰ الأشياء إلا بالمنظار المعتم ، كلها ناتجة من العقد النفسية ونابعة من حالة الفراغ

الروحي .

وتختلف العقد النفسيّة من حالة إلىٰ أخرىٰ . باختلاف شدة التأزّم الروحيّ أو خفّتها ، إذ كلّما ضعفت العلاقة مع الله سبحانه وتعالىٰ ، ارتفعت نسبة الانحرافات وازدادت حالة الاكتئاب والتأزّم الروحي والإحباط ، وإذا قويت العلاقة مع الخالق قلّت حالة التأزّم الروحي وهكذا . .

قال تعالىٰ : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[1] .

. . فحالات الشذوذ في السلوك أو الجنون أو الهيستيريا أو تعاطي المشروبات الرّوحيّة أو الإدمان على المخدّرات أو الانتحار . . ما هي إلا نتائج طبيعية لحالات الفراغ الروحي .

ويكمن السبب المباشر لهذه الأخطاء السلوكية في فهم الإنسان غير المؤمن وقناعته بأنّ الدّنيا عبارة عن فترة زمنية محدودة يعقبها فناء أبدي . . كالذي يهدم حياته ومستقبله

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٦.

بيده . ويرمي بنفسه من سطح شاهق ، ظاناً بأن في هذا سعادةً لا تقاس وظفراً لا يبارىٰ !!

أو كالذي يعيش تحت رحمة المخدّر والمسكر ، لينسىٰ لساعات طوال . . من هو ؟ ومن يكون ؟ هروباً من قدره المشؤوم ، وحياته التعيسة .

فالقانون الوضعي غفل ـ ولا زال ـ عن ربط العلاقة بين الإنسان وخالقه ، وهي علاقة مرتبطة بفطرة الإنسان ، وأمرٌ متعلق بروحه ووجدانه ، وهذا ما لم تغفل عنه العقيدة الإسلامية .

العقيدة الإسلامية وعمليّة البناء

إن العقيدة الإسلامية تبني الإنسان بناءً متوازناً ، وتفلسف له الحياة فلسفة منطقية فهو لا يعيش العبث ، بل العبث في عرف عقيدته ممنوع ، وهو يعلم أن فصول حياته لا تنتهي بمجرد الموت ، إنما بعد الموت هناك عالم للحساب والجزاء .

فالمؤمن في هذه الحياة أشبه بالطالب الذي يعلم علم اليقين أن دراسته التي يدرسها لا تنتهي بمجرد انتهاء الدراسة ، وإنما هناك إمتحان يُكرم فيه المرء أو يهان ،

وعليه أن يجدّ ويجتهد ، كذلك الإنسان المسلم الذي يحرص كلّ الحرص على الالتزام ، في عدم الإفراط والتشبّث بالدنيا وأهوائها وشهواتها ، إذا كانت المشاكل والمصائب تؤدي بحياة الكثيرين ممن يعانون فراغاً روحيّاً عن طريق الانتحار السّريع أو البطيء ، وأن المؤمن تزيده المصائب ثباتاً وتعلّقاً برحمة الله تعالىٰ . فهو لا يخاف الموت ، لأنّ الموت في عرفه تقرّباً إلىٰ الله ، وانتصار على الشهوة والهوىٰ . . هكذا يتعامل المؤمن مع صعوبات الحياة التي يتحمّلها تحسّباً لثواب الله والفوز بالجنّة .

ولن يجد الإنسان مفراً من تلك العقد ، إلاّ بتنمية عنصر الإيمان بالله ، والذي ينمّي بدوره الإرادة ، ويبعث الطمأنينة في النفس[1] .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

الشذوذ النفسي . . والدافع الغريزي

من المعلوم أن الغريزة مرتبطة بالتركيبة الآدميّة من الداخل ، وتخضع بشكل أولي إلىٰ قوّة الإرادة وضعفها ، فإثارة الغريزة وهيجانها مؤشّر أوّلي إلى ضعف الإرادة ، كما

---

(١) مجلة عفاف ، عدد ١٢ ، ص ١٣ .

إن حدّة الغريزة هي دليل علىٰ قوّة الإرادة ، مع العلم أن الإرادة القوية إن وجدت فإنها تقوم بتجنيد الغرائز لمصلحة الشخصيّة والمحيط والمجتمع ، وكذا يمكنه أن يؤدّي الدور نفسه بمستوىٰ الإضرار بالشخصية والآخرين والمجتمع أيضاً .

فالشخصية السويّة تسلك الطريق المستقيم لإشباعها للغرائز ، أما الشخصية المرضيّة فإنها لا تسلك إلاّ الطريق المُعوجّ والخاطىء لنيل ما تريد ، دون البحث عن سلامة الطريقة المتّبعة للإشباع ، بل الأهم من كلّ هذا هو تلبية حاجاتها بأي شكل وتحت أي غطاء .

فالجبابرة والطغاة والظالمون . . أمثلة حيّة لهذا القول ، فهم يسلكون طريقاً خاطئة في إشباعهم للغرائز .

ففرعون وهامان وقارون وغيرهم من المتكبّرين سلكوا الطريق المعوّج ذاته لنيل ما يريدون . قال تعالىٰ : ﴿ . . . **إنّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾[1] . ﴿ **وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين** ﴾[2] .

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

.. وخير نموذج نختاره هنا (قارون) شخصية من قوم موسى عليه السلام أو من أقربائه كما جاء في بعض النصوص المفسّرة بأن قارون ابن خالة موسى أو ابن عمه .

وقد ذهبت أكثر التفاسير إلى أنّ الإسرائيليين بعد كفرهم وجحودهم ونكرانهم للنعم ، وغضب السماء عليهم ، وإلقائهم في (التيه) أربعين سنة ، ندم البعض منهم واتّجه إلى التّوبة والاستغفار ، وكان قارون واحداً من هؤلاء الذين شغلوا أوقاتهم بالعبادة والتضرّع والدعاء وقراءة الكتاب المنزّل ، إضافة إلىٰ هذا الدّور ، كان عالماً في علم الكيمياء مما زاد في رزقه وخيره ، فكثرت أمواله ، وارتفعت مكانته العلميّة والاجتماعية .. ولكن قارون .. ومع توفير النّعم والخيرات له .. لم تكن فيها سعادته . بل أدّت إلىٰ تعجيل نهايته وذلك بسبب جحده النّعم وغروره واستعلائه واستطالته على قومه وإهانتهم بأمواله الضخمة التي كان يمتلكها . وإن هناك علاقة بين طغيانه على قومه وممتلكاته الضخمة التي كانت بين يديه ، وغروره بها عليهم .

فسلوكه الخاطىء ، وطريقته المبتذلة لتحقيق ما يريد أوصلته إلىٰ قمة الفساد والبغي .

يقول تعالىٰ :

﴿ إن قارون كان من قوم موسىٰ فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغِ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[1] .

.. أجل.. إن أشباع الشخصية لحاجاتها الغريزية من غير توازن ولا توجيه يُعدّ شذوذاً نفسياً فيه امتهان لحقوق الآخرين ، وتعدٍّ صارخ علىٰ أرزاقهم وممتلكاتهم دون أدنى شك ، وقد لا تتوقف الشخصية عند حدّ لهذه المطامع ، فتبحث عن الكثير من الانتصارات غير المشروعة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي حتى تحقق لنفسها أكبر قدر ممكن من السعادة المصطنعة التي سرعان ما تصطدم مع ردة الفعل النفسية تجاه الذات ، وتحوّل الشخصية فيما بعد إلى شخصية محطّمة يائسة ، وربما تتحول إلى الطرف الآخر ، باتجاه الآخرين من حوله إمّا بإذلالهم كالعبيد أو بإبادتهم والقضاء عليهم إن كان صاحب سلطة وقدرة .

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦ ـ ٧٧.

حيث تثير نقاشاً ساخناً تجاه أحد الأشخاص ممن يحيط بك ، أو ممن تربطك بهم علاقة وثيقة ، أو من أولئك الآخرين الذين يعملون معك في دائرة العمل مثلاً . .

هذا النقاش قد ينتهي تالي الأمر إلى ظهور حالتين متناقضتين تنمان عن نموذجين متضادين في مستوى الفكر وتحديد النفسية .

النمـوذج الأول : سيكـون رأيـه اتجـاهـك متطـرفـاً للغاية لا يذكر لك إلا المساوىء والأخطاء وهذه صورة منسوجة عن الروح السلبية والتي هي أحد أوصاف الحالة المرضية .

النموذج الثاني : سيتناول الأشياء على موضوعيتها ، وسيفسّر كـلّ الأعمـال والنشـاطـات التـي قمـت بهـا بنظـرة إيجابيّة ، ناتجة عن نفسيّته الإيجابية والتي هي من أوصاف الحالة السويّة .

فثمة رابط قوي بين شذوذ النفس وتطرّفها ، والأخطاء الفكرية التي تعتنقها الشخصية وتؤمن بها .

ففي الوضع الطبيعي تتحدد رغبات الغريزة ضمن إطار

العقل والتربية الصالحة .

ففي العقل يقول تعالىٰ : ﴿ كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[1] .

وفي الحديث عن الكاظم عليه السلام قال : (إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال : « بشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب »[2]) .

وفي الحديث الشريف : « مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت »[3] .

« من وصايا موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم » : يا هشام ما قسّم بين العباد أفضل من العقل ، نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وما بعث الله نبيّاً إلاّ عاقلاً حتّى يكون عقله أفضل من جميع جهد المجتهدين ، وما أدّى العبد فريضة من فرائض الله حتّى عقل عنه[4] .

وفي التربية ، عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « من حق الولد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢.
(٢) ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٣٩٥.
(٣) ميزان الحكمة: ج ٦، ص ٣٩٧.
(٤) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٥٤.

على والده ثلاثة : يحسن اسمه ويعلّمه الكتابة ويزوّجه إذا بلغ »[1] .

وعنه ﷺ قال : « لأن يؤدّب أحدكم ولده خيراً له من أن يتصدّق بنصف صاع كل يوم »[2] .

وعنه أيضاً قال : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم يغفر لكم »[3] .

أما في الوضع غير الطبيعي ، أي الحالة المرضية ، وفقدان دور العقل والتربية السليمة تعجز قدرة الشخصية وإمكاناتها العقلية عن ملامسة أرض الواقع ، وهنا يحدث الشذوذ والتطرّف في النمط التفكيري لديها .

وهذه الحقيقة يثبتها العلاّمة (محمد تقي المدرسي) في كتابه (المنطق الإسلامي) فيقول :

في الحالات الشّاذة حيث يفقد الإنسان قدرته على رؤية الواقع بسبب من الأسباب التالية . . لا يستطيع العقل تحديد رغبة الغريزة الكارهة التي يدعو صاحبها لطاعتها بأي

---

(١) مكارم الأخلاق : ص ٢٢٠ .
(٢) مكارم الأخلاق : ص ٢٢٢ .
(٣) مكارم الأخلاق : ص ٢٢٢ .

صورة ما كانت . فلذلك ينسحب دور العقل ، ويترك المجال مفتوحاً أمام قيادة الغرائز الصمّاء ، والأسباب التي تجعل الفكر البشري عاجزاً عن مقاومة الغرائز الشاذة هي التالية :

أولاً : أن الفرد الذي يعادي الناس ، ويريد أن ينتقم منهم ، في مقابل احتقار الناس ، وعداوتهم له ، حسب ظنّه ، هذا الشخص لا يمكن أن يقبل كلام الآخرين ، لأنه سوف يحمله على أسوأ المحامل الممكنة ، ويعتقد بأن نصيحة النّاس له ما هي سوى شرك ومصيدة ، هكذا يتصور من يسيء الظنّ بالنّاس ، ويحسبهم أعداء له .

ثانياً : الذي يحتقر الناس انتقاماً منهم لنفسه المحتقرة ، يريد أن يزيل هذا الاحتقار الذاتي بصنع هالة حول نفسه ، وفعلاً ينسج من الخيال . هذه الهالة ، ويزعم أنه أعلم من مشى على البسيطة وأعدلهم وأفضلهم ، وبما أنه يعلم يقيناً أنَّ الذي صنعه لنفسه ، إنْ هو إلاَّ خيال سخيف ، ينشأ في نفسه نزاع حاد ، بين ضميره الغائب ، الذي يشعر بالمهانة ، وبين ضميره الظاهر الذي يريد أن يزيل هذه المهانة بالاعتقاد بعظمة نفسه . . ويدفعه الحذر إلى رفض كلّ شيء خوفاً من ضرره بكيانه ، وهو يرفض التبصّر والتعلّم

خوفاً من أن يؤدّي إلى كشف أخطائه .

ثالثاً : المتمرّس بالجريمة عمّن سواه ، في أنه قد أصبح يرىٰ أن الجريمة هي الصراط السوي ، وأن ترك الجريمة ليس سوىٰ شذوذ ظاهر وأن رد الفعل الشرطي ، يسبّب ضغط الجريمة باتجاه منحرف ، فالذي تعود علىٰ إشباع غرائزه بالطرق الملتوية ، فبينما تدفع غريزة الجوع التاجر إلى الكسب الشريف ، تدفع الغريزة ذاتها السارق إلى الجريمة ، وكما إن إشباع الغريزة بطريق التكسُّب عمل محترم عند التاجر ، فكذلك إشباعها بطريقة السرقة ـ عند المجرم ـ عمل معروف ، وهكذا تتحول الجريمة إلىٰ شرف ، والمنكد إلى معروف ، وبهذا التحوّل . . تتحوّل كل مقاييس الفرد ، فهو لا يستطيع ـ بعدئذ ـ تصور الخير إلا من خلال تحقيقه للغرائز ، وهكذا سيكون سبباً خطيراً من أسباب الخطأ الفكري عند الإنسان ، إذ أنه ينتزع من الإنسان مشعل عقله ويدعه في ظلمات حالكة ، وهذه هي الأسباب الرئيسية التي تقف وراء تأثير الصفات النفسية المنحرفة في خطأ الفكر الإنساني[1] .

---

(١) المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه: السيد محمد تقي المدرسي، ص ٢٦٤.

الأنماط التفكيرية .. للشخصية الإجرامية

إن الأسلوب التفكيري الذي تتميز به الشخصية الإجرامية التي تتَّسِم بطابع الشرّ والإجرام .. وهي أعلىٰ مرحلة تنتهي إليها الشخصية المرضيّة في تدرُّج المستوىٰ الإجرامي .. من شعور الشخصية بالحقارة والضآلة والإحساس بالنقص ، والخوف المفرط الذي يسيطر علىٰ فكرها وسلوكها ، وكذا في نظرتها القاتمة للحياة ولنفسها المحتقرة ، ولنظرة الآخرين المشوّهة حسب رأيها تجاهها ، وإلىٰ حالة الاضطراب وعدم الإتّزان في النمط التفكيري ، والصورة الضبابيّة التي تحرمها من مشاهدة أنوار الخير والفضيلة ، مما يدفعها دائماً لممارسة السلوك العدواني وقد تعمد إلى تغطية مواقفها الداخلية بقناع من الغرور والإدّعاء ، وإحساسها في الوقت ذاته بالعظمة والاستعلاء .

وقد تستخدم في أسلوبها العدواني أشكالاً مباشرة كالسجن والتشريد والضرب المبرح ، والقتل والإبادة ، وأشكال غير مباشرة كإشعال الفتن وحياكة المؤامرات ، والتدخُّل الفضولي لزيادة حدّة المنازعات بين الأطراف المتنازعة ، والتنحّي عن فك الخصومات والاجتناب عن محاولات الإصلاح ، والعمل الدائب في سبيل إيذاء

الآخرين أو إطاحتهم من مناصبهم أو الحيلولة دون تقدمهم وتحقيق طموحاتهم .

وكنموذج نختاره للتشريح النفسي (فرعون) الذي يمثل الشخصية الإجرامية بكل خصائصها ومميزاتها . عن طريق الآيات القرآنية بتوضيح وضعه وحاله :

١ ـ ففي حالة الاضطراب الوجداني وعدم الاتّزان في مستواه الفكري .

يقول تعالىٰ في كتابه :

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله . . ﴾[1] .

٢ ـ وتبرز سِمة الانفعالية والإرتجالية في مواقفه وقراراته الصارمة العدوانية :

﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن اذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنّكم

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٣٦ ـ ٣٧ .

أجمعين ﴾[1] .

٣ ـ هيمنة فرعون على قومه واستعباده إياهم بقوة الحديد والسيف :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون ﴾[2] .

٤ ـ الخوف المفرط من انتصار قوىٰ الحق ، وإعداد القوة اللازمة عسكرياً وإعلامياً وتصفية القوىٰ المضادة :

﴿ فلمّا جاءهم بالحق من عندنا * قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه * واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال * وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربّه إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾[3] .

٥ ـ شعوره بالضآلة وإحساسه النقص متمثلاً في الانتقام الوحشي اللاإنساني لقومه :

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا * قالوا اقتلوا أبناء

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨ .
(٣) سورة غافر، الآيات: ٢٥ ـ ٣٦ .

الذين آمنوا معه * واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاَّ في ضلال ﴾(1) .

٦ ـ التباهي والاستعلاء والشعور بالعظمة :

﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هو مهين ولا يكاد يبين ﴾(2) .

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ . . . . . . ﴿ فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربّكم الأعلىٰ ﴾(3) .

* * *

الانحراف في الإسلام

تختلف التقديرات لكلّ من : القانون الإلهي ـ القانون الوضعي في نظرتهما إلى الشخصية المرضيّة أي (الإنحرافية) .

فنظرة القانون الثاني إلى موضوع الانحراف عادةً ما

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٥٠ ـ ٥١.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٥.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

تضبطه القوانين العامة التي وُجِدَت حلولاً مؤقّتة نتيجة للمشاكل المتلاحقة والمتفاقمة ، وهذا يظهر بوضوح في الاختلافات القائمة في تحديد النظرة إلى الشخصية الانحرافية من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد آخر .

فنظرة المجتمع الأوروبي إلى رذيلة ما ، وكذا لنوعية العقاب لردع هذه الرذيلة تختلف كماً وكيفاً عن نظرة المجتمع الآسيوي إليها . . وهكذا ، إذ أن القانون الوضعي كان ولا يزال خاضعاً إلى التناقض الناتج عن تناقض أفكار واضعيه وظروفهم ، فهو ليس قانوناً في الاجتماع ، وهو من جهة أخرىٰ يضرّ بالفرد ومصالحه ، فينتهج قانوناً مرقّعاً جديداً ، ولكن سرعان ما يعلن إخفاقه ، إضافة إلىٰ ذلك أن القانون لا يُطبّق على الرفيع والوضيع ، فقد يطبق القانون على البعض ، ويتفاوت تطبيقه على الآخرين باختلاف المقاييس والرتب الإجتماعية . . وهذا بدوره مدعاة لإسقاط هذا القانون ، وإخفاقه مما يستوجب إزدياد نسبة المشاكل ، كردّ فعل عنيف علىٰ هذا القانون الناقص .

أمّا في القانون الإلهي ، ووفق المنهج المتكامل لسعادة البشرية ، والدستور المنظم الذي أراده الشارع المقدس ، ومن أجل السعادة الحقيقية التي يشعر بها الكائن

الآدمي ، فإن القانون وضع بالدرجة الأولىٰ لمصلحة الفرد والمجتمع والعدالة . . دون تداخل أو تشابك في هذه المصالح .

فعلىٰ الرّغم من تعاقب الأجيال ، وتغيّر الأزمنة ، واختلاف الظروف ، فإن القانون هو القانون . . كامل وشامل لا يقبل التجزئة ، بل إن المصلحة العامة تستوعب كل العناصر ـ الفرد ـ المجتمع ـ الدولة ـ دون تناقض أو نقص لهذا القانون ، وهذا ما يثبت جدارته بالانتصار في ميدان الحياة دون منافس ، ومن جهة أخرىٰ فهو قانون يُطبق علىٰ الكلّ على حدٍّ سواء ، دون فرق بين عرق أو لون ، وهذا ما أقرّه سيد البشرية بقوله :

« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

. . فالشخصية المنحرفة في نظر الشارع المقدّس . . هي من تقوم بأيّ عمل يفسد النظام ، ليفتح الباب مشرعاً أمام الفوضىٰ لتدخل في القانون ، وتحول دون تطبيقه على واقع الحياة ، مما يلحق الضرر بالمصلحة الفردية أو المصلحة الإجتماعية ، أو بكلتيهما معاً .

الفصل الثاني

الشخصية المرضيّة . . والدوافع النفسية

في الوقت الذي يبذل فيه الكثيرون جهودهم في سبيل سعادة البشرية ، يبذل الكثيرون في الطرف الآخر ، الجهود نفسها ، بل لعلها أضخم حجماً منها ، من أجل شقاء الإنسانية وتحطيمها .

فإن كلّ الظواهر السلوكية الخاطئة المتفشية في الواقع المتحضّر . . هي ثمرة تلك الجهود المبذولة لتحطيم الإنسان ، وسلب عقله وفكره ، وجعله دمية رخيصة يتلاعبون بها حيث شاؤوا ، للسيطرة على إنسانيته ، بل ومحاولة إرجاعه طفلاً رضيعاً يرجع إلى أحضان

أمّه (الغرب) كلّما شعر بالجوع والخوف !!

فالتخطيط المسبق لكسب الساحة بكاملها لصالح المُستَغِل ، جعل هذه الحقيقة واضحة للعيان أمام دور المُستَغَلّ ، وذلك في مواقفه الإنهزامية أمام المنعطفات التي تواجهه ، والتراجع عن مواجهة الأحداث ، والدور الهامشي والضعيف ، حتى فيما يتعلق بمستقبله وتقرير مصيره .

فالمجتمع الإسلامي اليوم بدأ يفقد هويته ، وموقعه الطبيعي في معالجة المواقف ، باتخاذ الحلول التخديريّة لمعالجة مجمل الأوضاع الراهنة ضمن النظرة المتذبذبة بين آراء اليمين واليسار ، جعله فريسة لمشاكل لا تنتهي ، بل وفتح أمامه كماً هائلاً من المشاكل التي لم تكن في حسبانه ذات يوم .

فالغزو السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والفكري للساحة الإسلامية ، وآثار هذا الغزو الذي أرجع الأمة إلى الوراء عشرات السنين ، جعل الشارع الإسلامي رافضاً للوضع المتأزّم ، الذي بدأ يلمس آثاره عن طريق الظواهر السلوكية المناقضة للعادات والتقاليد الاجتماعية المتجذّرة العمق في صلب تاريخه الأصيل ، وانعكاساتها علىٰ واقع الفرد والمجتمع .

كلّ هذا جعل الشارع الإسلامي ، يطالب بإلحاح بالغ تطبيق المنهج الإسلامي ، وإعادته إلى الحياة من جديد وإبراز هويته القادرة على تخليص الأمة من كلّ هذه الأخطار والويلات .

ولكن !

هل نرجع مجمل هذه الظواهر الإنحرافية ، وأسبابها الرئيسية إلى هذا الغزو الشامل للساحة الإسلامية ؟

أم أن هذا الغزو كان بمثابة الرّياح العاتية التي حوّلت الجوّ الصحو إلى جوٍّ عاصفٍ ؟ أي إن هناك أسباباً رئيسية للانحراف . وإنما كان دور الغزو الأجنبي المقصود للبلاد الإسلامية بمثابة المنشّط والمحرّك والدافع لإبرازها على سطح الواقع ؟

إن الغزو . . لم يكن إلا عاملاً مساعداً لعوامل رئيسية للانحراف . . وقبل أن نتناول هذه الأسباب نُعرّف الجريمة أولاً .

الجريمة : ظاهرة اجتماعية تصدر عن إنسان له جسم ونفس ، وتختلف في التركيب والتكوين من شخص لآخر ، وبالتالي فتأثيرها علىٰ تصرفاته ، وتأثّره بالعوامل الخارجية

يختلف من إنسان لآخر ، فلا يمكن القول بأن الجريمة سبب بذاتها ، لازم لوقوعها ، والثابت أن هناك عوامل مجتمعة سواء أكانت : وراثية متأصّلة في تكوين الشخصية ، أم عضـويـة مـرضيّـة ، أم إجتمـاعيـة تـدفـع إلـى السلـوك الإجرامي[1] .

والفارق بين الإجرام والإنحراف ، هو أنّ كلاً منهما فعل مذموم ولكن الإجرام سلوك يعاقب صاحبه معاقبة جزائيـة ، بينمـا الانحـراف فـلا يلقـىٰ صـاحبـه سـوىٰ اللـوم والسخط باعتباره شذوذاً عن القوانين العامة ، والأخلاق الضابطة للاجتماع ، ونمطاً سلوكياً مغايراً لما عليه العرف ، دون أن تصـل بـه إلـى العقـاب الجـزائـي مـا لـم يتحـوّل إلـى جريمة .

الجريمة واقعة إجتماعية

إن الشذوذ الفكريّ ، والذي يعقبه عادة انحراف ظاهر علـىٰ مستـوىٰ السلـوك ، لا تتعـدىٰ آثـار كـلٍّ منهمـا حـدود الشخصية فقط ، وإنما تخترق بذلك قوّة الجماعة وتتسبّب في الاضطراب الاجتماعي ، ولذلك شدّد الإسلام علىٰ

---

(١) النظريات الحديثة في تفسير السلوك الإجرامي : دار النشر بالمركز العربي بالرياض، ص ٣٩ .

خطورة الجرائم والانحرافات أيضاً ، لما تسبّبه من انعدام للأمن ، وإخلال بالنظام ، وتعدٍّ صارخ علىٰ القانون الذي يجرّ آلامه وويلاته علىٰ المجتمع فيؤذيه إيذاءً بالغاً .

الدوافع والأسباب

تواجه الشخصية في مسيرتها الطويلة ، دوافع ومهيجات ، تدفعها بالاتجاه السلبي وتجرها جرّاً لارتكاب الكثير من الحماقات والأخطاء ، حين تكون مجردةً من نور العقل .

فالشخصية تعيش حالة الصراع الدائم مع هذه الدوافع منذ لحظة إدراكها واستيعابها إلى آخر لحظة في مسيرتها الحياتية .

فالدوافع النفسية هي : النفس الأمّارة بالسوء
اتباع الشهوات
الخضوع لنداء الشيطان

فالنفس . . تلعب دوراً بالغ الأهمية في تحديد سلوك الشخصية ، واستجابتها لتأثيراتها ، فعلى الرغم من وجود قوّتين ضاغطتين في أعماق الشخصية ، إلا أنها أمام خيار صعب تلعب فيه الظروف ، ومستوىٰ النضج ، والتربية

السليمة ، دوراً كبيراً ، مما يحدد قوّة الشخصية باتباع نور العقل ، أو ضعفها وذلك باستسلامها لمنبهات الشهوة ومؤثراتها والاستجابة لها .

قال تعالىٰ : ﴿ **ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها** ﴾[1] .

ففي رواية (عن سعيد بن أبي هلال قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية ﴿ **قد أفلح من زكّاها** ﴾ ، وقف ثم قال : اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها ، وزكّها وأنت خير من زكّاها . فقد جاء في مجمع البيان للشيخ الطبرسي ، الجزء ١٠ ، ص ٧٥٥ في تفسير هذه الآية ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ أي عرّفها الفجور والتقوىٰ وزهّدها في الفجور ، ورغبها في التّقوىٰ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، وقيل علّمها الطاعة والمعصية لتفعل الطاعة وتذر المعصية وتجتني الخير وتجتنب الشر .

جاء في الحديث : « إنَّ النفس لجوهرة ثمينة ، من صانها رفعها ، ومن ابتذلها وضعها »[2] .

---

(١)سورة الشمس، الآيات: ٧، ٨، ٩، ١٠ .

(٢)ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ١٢٥ .

فالشخصية السوية قادرة علىٰ ترويض هيجان النفس ، وتهذيب السلوك ، بتقوية الجوانب الروحية ، وتهذيب السلوكيات ، والقيام بالأعمال الصالحة .

أمّا الشخصية المرضيّة فهي عاجزة عن تزكية نفسها ، بسبب قوّة ضغط النفس عليها وانعدام مقاومة الشخصية لها . مما يستوجب والحال هذه حبس الشخصية ضمن شباك النفس ومصائدها .

ويبيّن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في مناجاة الشاكين أبرز أساليب النفس للضغط علىٰ الشخصية ، فيقول :

« إلهي ، إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة ، وإلى الخطيئة مبادرة ، وبمعاصيك مولعة ، ولسخطك متعرّضة ، تسلك بي مسالك المهالك ، وتجعلني عندك أهون هالك ، كثيرة العلل ، طويلة الأمل ، إن مسّها الشر تجزع ، وإن مسّها الخير تمنع ، ميّالة إلىٰ اللّعب واللهّو ، مملوءة بالغفلة والسّهو ، تسرع بي إلى الحوبة ، وتسوفني بالتوبة »[1] .

ونستشف من المناجاة ما يلي : ـ

---

(١) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ١٣١ .

أولاً : دفع الشخصية بالاتجاه السلبي وحثّها علىٰ عمل السوء .

ثانياً : الإسراع والمبادرة إلىٰ ارتكاب الخطايا والذنوب .

ثالثاً : شدة التعلّق والولع بالمعاصي والآثام .

رابعاً : بروز السمات المرضيّة داخل الشخصية من : حقد وبغض وكراهية و . . و . .

خامساً : شدّة التعلق بالدّنيا ومفاتنها والرغبة القوية في الحياة .

سادساً : إنحسار قوّة الشخصية في مواجهة نكبات الدهر وضعفها وعجزها في تلقّيها المشاكل .

سابعاً : بروز سمة الأنا بالحرص والمنع في إسدال الخير ، وإفاضته علىٰ الآخرين وحرمانهم منه .

ثامناً : اللعب واللهو ، والاشتغال الكامل بالهوىٰ والطرب .

تاسعاً : سيطرة الغفلة والنسيان علىٰ ساحة القلب بكامله والاحتجاب عن ذكر الله .

عاشراً : الوصول إلى مرحلة (العقوق) بكثرة الآثام والذنوب .

حادي عشر : المماطلة والتّأخير في التوجّه إلىٰ أبواب التوبة .

. . هذه أهم أساليب الضغط على الشخصية ودفعها إلى الطريق الخاطىء ، فالنفس تشكّل قوّة ضاغطة لجرّ الشخصية في متاهات لا حصر لها ، وهي أوّل عدوٍ يواجهها ، للضغط عليها باتجاه الإنحراف . وحين تجرّد من نور العقل ، حينذاك لا تحدها حدود وتصبح عامل إضرار بدل أن تكون عامل بناء .

ففي سورة يوسف يتبين دور النفس في انحراف الشخصية ، وذلك في موقعين من السورة .

الموقع الأول : في موقف إخوة يوسف منه .

الموقع الثاني : في موقف يوسف مع امرأة العزيز .

ففي الموقع الأول . . . تقول الآيات : ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على

ما تصفون ﴾[1] .

لقد أرجع يعقوب عليه السلام المؤامرة السيّئة التي قام بها أمناؤه تجاه أخيهم يوسف عليه السلام إلىٰ سيطرة ضغط النفس علىٰ الشخصية ، وبروز سمة العدوانية المشبعة بالحقد والغيرة والكراهية مما دفع الأخوة إلى إيذاء أخيهم والتخلّص منه .

وفي الموقع الثاني من السورة : **﴿ وما أبدّىء نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي ﴾**[2] .

على اختلاف المفسرين في قائلها **﴿ وما أبرّىء نفسي ﴾** إذ لا مجال لبحثنا هنا ، وإنما بحثنا في قوله تعالىٰ : **﴿ إن النّفس لأمّارة بالسّوء ﴾** أي كثيرة الأمر بالسوء والسّهوة ، قد تدعو الإنسان إلى المعصية ، والألف واللام للجنس فيكون المعنىٰ إن كل النفوس كذلك ، كما جاء في مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٦٨ للشيخ الطبرسي .

. . فالنفس قوّة ضاغطة ، فتلوّن أساليبها ، في الضغط علىٰ الشخصية باتجاه الإنحراف ، فلذا لا ينبغي الضعف في

---

(١)سورة يوسف، الآية : ١٨ .

(٢)سورة يوسف، الآية : ٥٣ .

مواجهتها وكذلك عدم الثقة بها .

« إنّ النفس لأمّارة بالسوء والفحشاء ، فمن ائتمنها خانته ، ومن استنام إليها أهلكته ، ومن رضي عنها أوردته شرّ المورد »[1] .

« إن النّفس الأمّارة المسوّلة تتملّق تملّق المنافق ، وتتصنّع بشيمة الصديق الموافق ، حتّى إذا خدعت وتمكّنت ، تسلّطت تسلّط العدوّ ، وتحكّمت تحكّم العتوّ ، فأوردت موارد السوء[2] .

فلذا لا خيار أمام الشخصية السويّة سوىٰ مواجهة ضغط النفس بقوة الإرادة ، والوقوف أمام النفس والاشتغال بتهذيبها وتزكيتها ، وبذل الجهد للانتصار علىٰ الهوىٰ ، والعزوف عن الدنيا .

* * *

اتّباع الشهوات :

الدافع الثاني من الدوافع الذاتية للانحراف هو اتّباع الشهوات . فالتعريف اللغوي للشهوة : الرّغبة الشديدة ،

---

(١) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ١٣٠ .
(٢) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .

والقوة النفسانية الراغبة فيما يُشتهى من الملذّات المادية .

وتأتي الشهوة حيناً بمعنىٰ الهوىٰ ، وحيناً آخر بمعنىٰ اللذّة ، وكلاهما يؤدي إلىٰ المعنىٰ نفسه ، أما تأثير الشهوة علىٰ انحراف الشخصية فهذا ما سنتناوله فيما يأتي من حديث .

إن الشخصية المريضة العاجزة عن إخماد هيجان النفس واندفاعاتها ، تبقىٰ حبيسة ضعيفة بين إشراك النفس ، حتىٰ تستسلم لضغط الهوىٰ بسبب ضعف الإرادة ، وانعدام الضمير اليقظ . مما يجر الشخصية لاحقاً لاتباع الشهوات وهذه في المرحلة الثانية في الانحراف النفسي .

جاء في الأحاديث الشريفة :

« الهوى قرين مهلك »[1] .

« الهوى أعظم العدوّين »[2] .

« من تسرّع إلىٰ الشهوات ، تسرّعت إليه الآفات »[3] .

---

(1) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .
(2) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .
(3) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ٢٧٤ .

« الشّهوات سمومات قاتلات »[1] .

قال تعالىٰ : ﴿ أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه وأضلّه الله علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[2] .

إن الشخصية المنقادة لحبّ الشهوات ، والسالكة درب الخطيئة ، تفقد القدرة علىٰ الاستبصار والإنارة فهي عمياء ، صمّاء ، ضالّة ، مضلّة .

جاء في الحديث « أوصيكم بمجانبة الهوىٰ ، فإنّ الهوىٰ يدعو إلىٰ العمى ، وهو الضلال في الآخرة والدّنيا »[3] .

« إنّك إن أطعت هواك أصمّك وأعماك وأفسد منقلبك وأرداك »[4] .

علىٰ ضوء الآية الكريمة والأحاديث الشريفة يتبيّن أن استرسال الشخصية في غيّها وانحرافها وتمرّدها ، تُغلق

---

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٢٧٤.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٣) ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ٢٨٠.
(٤) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٢٨٠.

عليها منافذ الهداية ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تهتدي أبداً ، فهي تتابع طريقتها اللامستقيمة في الانحراف لإشباع غرائزها بالطرق المشروعة وغير المشروعة .

قال تعالىٰ : ﴿ زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث .. ﴾[1] .

إن شعور الشخصيّة بالتعطّش والرّغبة في الارتواء يدفعها دفعاً لأن تستجيب لشهواتها اللامحدودة ، في السيطرة ، والاستملاك ، والاحتواء ، فلا حدود واضحة لأمانيها وأطماعها فلديها الرغبة لإذلال كل شيء حولها ، ليكون تحت سيادتها وهيمنتها .

فإذا أتت نافلة الآيات والأحاديث من أجل مخالفة الهوىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوىٰ * فإنَّ الجنّة هي المأوىٰ ﴾[2] .

قال الإمام علي عليه السلام : « رحم الله امرأً نزع عن

---

(١)سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٢)ورة النازعات، الآيات: ٤٠ و ٤١.

شهوته ، وقمع هوىٰ نفسه . فإنَّ هذه النّفس أبعد شيء منزعاً ، وإنّها لا تزال تنزل إلىٰ معصية في هوىً »[1] .

وعنه أيضاً عليه السلام : « رحم الله امرأ . . . كابد هواه ، وكذّب مناه »[2] .

إنّ الشخصية المرضيّة التي تفكّر ولو لمجرّد لحظة ، بعيداً عن كبريائها وصلفها ، وتفكّر في أمر نفسها ، قبل أن تبدأ بالتفكير في شؤون الآخرين ، تقوم بعمل كفيل لإرجاعها إلىٰ سابق عهدها من الفطرة السليمة والوعي والاستبصار .

فتفكير الشخصية في الموت . . وكيف ستواجهه .

وتفكير الشخصية في القبر . . وكيف ستسكنه .

« أوحىٰ الله تعالىٰ إلى موسىٰ عليه السلام : اذكر أنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات »[3] .

وتفكير الشخصية في الآخرة . . وكيف ستقف بين يدي الله .

---

(١) نهج البلاغة : خطبة ٧٦ .
(٢) نهج البلاغة : خطبة ٧٦ .
(٣) ميزان الحكمة : ج ١٠ ، ص ٢٨٩ .

... وكنّها منبهات إلىٰ الخطر الحقيقي الذي تحوم حوله الشخصية وتقع فيه ، وفي هذه المرحلة من الانحراف تتاح للشخصية فرصة أخرى من أجل الاسترجاع وإعادة النظر في أمرها قبل فوات الأوان .

يقول الإمام علي عليه السلام : « اذكر مع كلّ لذّة زوالها ، ومع كلّ نعمة أثقالها ، ومع كلّ بليّة كشفها ، فإنّ ذلك أبقى للنّعمة ، وأتقى للشّهوة ، وأذهب للبطر ، وأقرب للفرج ، وأجدر بكشف الغمّة ، ودرك المأمول »[1] .

* * *

الخضوع لنداء الشيطان :

إن العلاقة الرابطة بين الشخصية ، والشيطان في مفهوم القرآن هي « العداوة » .

قال تعالىٰ : ﴿ إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً ... ﴾[2] .

﴿ ... إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾[3] .

---

(١) ميزان الحكمة : ج ١٠، ص ٢٨٩ .
(٢) سورة فاطر، الآية : ٦ .
(٣) سورة يوسف، الآية : ٥ .

﴿ . . . إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾[1] .

تواجه الشخصيّة ضغط النفس بمحاولة ميلها عن جادة الصواب ، وانزلاقها إلى الطريق المنحرف ، ثم يزداد ويشتد ضغط الغرائز عليها ، فتخضع الشخصية للاستجابة الطوعية لها ، وتتبع الهوىٰ ، ثم يأتي دور الشيطان ليزداد الضغط عليها من جهة أخرىٰ . فلقد تحقّق ما يريده الشيطان ، من وقوع الشخصية في طريق الانحراف والغواية .

﴿ كُتِبَ عليه أنه من تولّاه فإنّه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴾[2] .

إن الحقيقة الواضحة : هي أنّ الشيطان يبذل كلّ ما في وسعه ، لإضلال الشخصية وإذلالها ، وإسقاطها في وحل الخطيئة .

﴿ قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة الحج، الآية : ٤ .

شاكرين ﴾[1] .

إن مهمة الشيطان الوحيدة هي إغواء البشر عن الصراط المستقيم ، وأقسم خاضعاً أنه سيأتيهم من أمامهم ، ومن خلفهم ، ومن قبل أيمانهم وشمائلهم ، ليحرفهم ، ويضلّهم عن معرفة نور الحق ، ويرصد كلّ خطواتهم ، ليمكر بهم في محاولة منه لإبعادهم عن هدي الاستقامة ، ويسعىٰ جاهداً لتحقيق هذه الغاية ، فهو يصوّر الباطل حقاً ، ويزيّن القبائح من الأعمال ، وقد يعطي تصريحاً بسلامة الأعمال الخاطئة على أنّها صحيحة ولا غبار عليها ، ويفلسف الأشياء بأسلوب ملتوٍ من أجل تحقيق ضالته المنشودة وهي غواية البشر .

وهنا سنعرض موقف إبليس مع آدم عليه السلام :

﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة فكُلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وری عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين *

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦ ـ ١٧ .

فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدوٌ مبين ﴾[1] .

أسكن الله آدم وزوجه الجنّة وأحلّ لهما كلّ شيء فيها من خيراتها ونِعَمِها ، باستثناء شجرة واحدة لحكمة إلهية ـ لم يدركا أبعادها إلاَّ بعد ارتكاب الخطيئة ـ .

. . إن الوسوسة هي الوسيلة التي استخدمها الشيطان ، والوسوسة : هي التشويش علىٰ رؤية الإنسان وفكره وبصيرته ونور الفطرة في نفسه عن طريق إثارة هيجان النفس وإطلاق قوة الغرائز .

﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

لقد كان الشيطان ذكياً فقد اختار أسرع الطرق استجابة لندائه وهي :

ـ **﴿ إلاَّ أن تكونا ملكين ﴾** حبّ الإنسان الملك والقوة والعلو .

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.

ـ ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ حب الخلود والبقاء .

وأعقب علىٰ تفسيره الخاطىء خطأً أكبر وأفظع بأن حلف لهما حلفاً صريحاً مؤكّداً .

وفي نهاية المطاف مع الشيطان يقتربان من الشجرة ويتذوقان طعمها ، فإذا تظهر لهما عوراتهما ، وكلّ منهما يرىٰ عورة الآخر ، وشعورهما بالحياء والخجل ، فأخذا يجعلان أوراق الشجر علىٰ بعضها لعلها تستر ما ظهر من عوراتهما .

﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ .

إن الشخصية لا تدرك حقيقة الذنب إلا بعد انتهائها من عملها الخاطىء ، ليستيقظ ضميرها حينذاك .

﴿ وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنّ الشيطان لكما عدوٌّ مبين ﴾ .

. . إن حركة الشيطان ليست حركة ساكنة بل هي متحركة وفاعلة ، تتفاعل في أذهان البشر وفي خواطرهم وأعمالهم ، وتحوم حولهم دون هوادة ، وبلا استقرار ، ولا تزول عنهم حتى تراهم ساقطين في وحل الخطيئة .

فالشخصية المرضيّة تستسلم سريعاً لنداء الشيطان ، وتخضع طائعة أمامه ، أما الشخصية السويّة فهي تعلم علماً يقيناً لا يشوبه أدنى شك بأن الشيطان يتربّص بها الدوائر فهي تحاربه بإيمانها وتوكّلها علىٰ الله وتسبيحها بذكر الله تعالىٰ .

﴿ إنّه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلىٰ ربّهم يتوكّلون ﴾[1] .

(قال إبليس : خمسة ليس لي فيهنّ حيلة وسائر الناس في قبضتي : من اعتصم بالله عن نيّة صادقة واتكل عليه في جميع أموره ، ومن كثر تسبيحه في ليله ونهاره ، ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه ، ومن لم يجزع علىٰ المصيبة حتى تصيبه ، ومن رضي بما قسّم الله له ولم يهتم لرزقه)[2] .

كيف نطرد الشيطان ؟

يقول الرسول محمد ﷺ : « ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق عن المغرب ؟، قالوا : بلى ، قال : الصّوم يسوّد وجهه ،

---

(١) سورة النحل، الآية : ٩٩.
(٢) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٧٨.

والصدقة تكسر ظهره ، والحبّ في الله والمؤازرة علىٰ العمل الصالح يقطع دابره ، والاستغفار يقطع وتينه »[1] .

إن إرادة الشخصية ، والصمود في مواجهة ضغط النفس ، وكبح الشهوة ، واستخدام الشخصيّة عقليتها في الحكم علىٰ الأشياء ، قبل البدء بها ، وممارستها ، وعدم الاستجابة الصمّاء لنداء ووساوس الشيطان ، كفيل لسلامة الصحّة النفسيّة للشخصية السّويّة .

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٩، ص ٣٨٠.

الفصل الثالث

الأسرة .. وشذوذ الشخصية

الأسرة وآثارها في شذوذ السلوك

إن الحاجة البيولوجية للشخصية تستدعي وجود حالة من الالتحام والانسجام بين الشخصيّة وبين بيئة الأسرة ، كما لا بدّ من وجود حالة التكامل العاطفي والارتباط الوجداني معها ـ أيضاً ـ .

أمّا في حالة انعدام التكامل العاطفي ، وحرمان الشخصيّة من الدفء والرعاية والحبّ ، فذلك كفيلٌ لبناء جدار منيع يحجب عنها الراحة النفسية ، وقد يكون مدعاة

لانحراف الشخصية وهروبها المستمرّ من بيئة الأسرة إلى خارجها ، رغبة في إشباع حاجاتها الغريزية في بيئة أخرىٰ .

ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نطمس الدور الكبير الذي تلعبه الأسرة علىٰ مسرح الحياة الإجتماعية ، وبخاصة فيما يتعلق بالانحرافات الأخلاقية ، ذلك لأن (الأسرة) أحد الأسباب الرئيسية المؤدّية للانحراف .

فالأسرة مسؤولة إلى حدّ كبير عن ارتفاع مستوىٰ الاضطرابات السلوكيّة بين أفرادها والميل إلى الانحراف ، وقد ينشأ ذلك عن عدم استقامة العائلة في الخطوط الأساسية للتربية التي تنتهجها . فقد تبالغ في تعاملها بأسلوب العطف والرعاية والحماية ، وقد تستخدم الأسلوب الآخر المناقض تماماً .

فالإفراط والتفريط في تربية الأبناء ، يؤدّي إلىٰ ما لا تُحمد عقباه من نتائج مضادّة لمطالب الأبوين والمربّين ، ورغبتهما في إصلاح الأبناء وسلامتهم .

فالتذليل فوق الحدّ الطبيعي ، والتحقير للسلوك والتصرّفات ، أمام الأقران والضيوف بالذات ، أو جعل الأبناء يختلطون بأفراد مشبوهين ، أو عزلهم وإبعادهم لفترات طويلة عن الاجتماع المألوف لديهم لسنوات ،

يجعلهم عرضة للانحراف بالخمول والكسل أو بامتثال السلوك الخاطىء والنشاط المحرّم .

قد يعبّر هذا الأسلوب الذي تنتهجه العائلة عن لون من ألوان الانحراف ، وهناك لون آخر يتمثّل في التضارب الفكريّ بين الوالدين ، ومشاجراتهما المستمرّة بشأن حاضر ابنهما ومستقبله .

وقد يزداد الأمر سوءاً إذ يتطور التضاد والتضارب في كلّ ما يتعلق في كلّيات شؤونه وجزئياتها ، فيؤدّي هذا التناقض والازدواجية إلىٰ انفصام في شخصيته ، وقد يصبح فيما بعد مريضاً بالعقد النفسية التي تفقده الثّقة بنفسه ، وتفقده الأصدقاء والأقران من حوله ، وذلك بسبب أفكاره المريضة ، ونزعاته العدوانية البارزة على سلوكه وتصرفاته .

فللأسرة آثار مؤكّدة في تحديد شذوذ السلوك ، تتنوّع الأخطاء التربوية في الأسرة وتتعدد ، يجزل بعض الأهل العطاء ، ويقتّر البعض الآخر فيه ، فيحد دون فعاليات الطفل بمنتهىٰ الدقة ، وتقف حائرة لا تفعل شيئاً ، لإغناء محيط الطفل وإثارته ، وتخطىء بعض الأسر ، فتلقن صغارها أنماطاً سلوكية مثالية ، أو خاطئة ، أو متشدّدة ، وتعجز أسر أخرىٰ عن معاناة أي إحساس بالوالديّة ، فتنعكس ممارسات

الأهل التربوية الخاطئة في سلوك الناشىء اضطراباً يدمّر التكيّف السوي ، ويتجلىٰ رفض الوالد أو الوالدين للطفل بعجز الأهل عن إيصال حبّهم للطفل بسبب انعدام الحب لدىٰ الوالدين ، أو عجزهم عن التعبير عنه ، يحطّ إحساس الطفل بالرفض من مفهومه حول ذاته لأنَّ مفهوم ذات الفرد عن ذاته انعكاس لاتجاه الآخرين من الذات ، فيعجز الطفل نتيجة لذلك عن التفكير حول نفسه بصورة إيجابية وتحطيم قدرته علىٰ التمييز بين السلوك المستحسن وبين السلوك المستهجن لانعدام عاملي الثواب والقصاص الملازمين لتقبل الوالدين للطفل ورضاهما عنه ، وهنا تترعرع ثقة الأطفال الذين يحسّون بالرفض بأنفسهم ، ويضحون مخلوقات دائبة البحث عن الانتباه ، حسودة ، عدوانيّة ، تعاني آلام الوحدة ، وتعجز عن تبادل العطف مع الآخرين[1] .

الأسس النفسيّة لمشكلات الأسرة

تتّضح الصورة المؤلمة ، لواقع الطفل المرير ، علىٰ الرغم من المحاولات الدائبة في خلق العنصر الناجح

---

(١) علم الاضطرابات السلوكية : د. ميخائيل ابراهيم أسعد، ص ٧٢.

والسليم ، إلاَّ أن الخطأ في المنهجية التربوية ، يؤدي إلى عكس ما يرمي إليه المربّون ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ـ وهي أشد خطورة من الأولىٰ ـ، فإن تعامل الوالدين مع طفلهما ، بالمعاملة التقليدية الخاطئة نفسها التي تربّيا عليها أثناء طفولتيهما الباكرة ، وربما مرّ أحد الوالدين ، بمرحلة صعبة في حياته . فيحولها بصعوبتها وقساوتها نفسها تجاه طفله ، وقد يعكسها ، ليبالغ في دور العطف والشفقة عليه ، وبهذا يكون قد أوصل ابنه إلى حافة الانحراف ، دون أن يشعر بذلك .

إن الحياة الزوجيّة مسرح يمثّل عليه الأزواج ما تعرّضوا له طوال حياتهم الأولىٰ أيام الطفولة الباكرة ، فمن شبّ منهم علىٰ عداء لا شعوري لوالديه ، كان أدنىٰ أن يصبّ عداءه هذا علىٰ شريكه في الزواج ، ومن شبّ منهم مدللاً مسرفاً في الإتكال علىٰ والديه ، يتطلب هذا من شريكه ، وجعل يستدر منه العطف ، ويلتمس النصح والحماية . . فإن رزق الزوجان بأطفال ، فإن هؤلاء الأطفال إنما هم وسائلهم في التعبير عن الجوانب المأساوية لنشأتهم الأولىٰ ، أو هم بالأحرى كبش فداء لما عاناه كلٌّ منهما في حياته الباكرة ، وقد يكون التعبير عن هذه المأساة تعبيراً

عكسياً ، بمعنىٰ أن الوالدين أو أحدهما يسرف إسرافاً زائداً في العطف والحماية والرّعاية ـ لأولاده أو لطفله . . ذلك لأنه يرفض هذا الطفل ، أو أنّه يقتصر علىٰ طفل واحد ، على الرغم من إلحاح زوجته عليه لإنجاب آخر أو آخرين ، إلا أنّه يرفض خشية أن يحرم طفله كما حرم هو ، ذلك أنّه قد تقدمت به السنّ ، ويخشى أن ييتّم ابنه فيعذّب كما عذّب هو في طفولته ، أو يشقى كما شقي ، وبذلك يكابد الأطفال بذنب لم يقترفوه ـ الآثار السيئة للبيت المحطّم ، والنفوس المعذّبة ، والشخصيات المشروخة .

كما أن الأسرة المنفصمة بالطلاق والهجر أو الوفاة تكون عاملاً أساسياً في الانحراف إذا اقترنت بعوامل إضافية أخرى . كالإهمال التربويّ ، وسوء الرعاية والحماية ، وعدم تحمّل المسؤولية في بيئتي الأسرة والمجتمع ، بخاصة إذا اقترنت بعوامل إضافية أخرى ، كالإعمال التربوي ، وسوء الرعاية والحماية ، وعدم تحمّل المسؤولية في بيئتي الأسرة والمجتمع ، بخاصة إذا كان حدثاً صغير السن لم يكتمل نموّه الجسمي بعد ، ولم ينضج مستواه العقلي وهذا ملموس بتوجيهات الشارع المقدّس ، الذي اعتبر الطلاق قضية غير طبيعية ، إذ أن الحياة الطبيعية هي التفاهم والدفء

والتعاون ، فإذا لم يتوفّق الزوجان لتحقيق هذه المبادىء ، فإنّ في تشريع الطلاق حماية للأسرة من المضاعفات الخطرة التي قد تنجم عن الخلافات المستمرة والمشاجرات الرائدة وحالة التفكك وعدم الترابط الأسري .

جاء في الحديث :

« ما أحلّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق »[١] .

« ما من شيء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة . . إنّ الله عزّ وجلّ إنما وكّد في الطلاق ، وكرّر القول فيه من الفراق »[٢] .

وكما هو الحال في الطلاق . . كذلك في (الوفاة) وفاة أحد الوالدين ، وضياع الطفل اليتيم عن دائرة التوجيه ، وحسن التربية . ويزداد الأمر خطورة في إهمال بيئة المجتمع للطفل اليتيم . فلذا أقرّ الشارع المقدس ، حفظ مال اليتيم وإقرار حقوقه ، وممتلكاته الخاصّة ، دون الإذن للآخرين في التصرّف في هذه الحقوق .

﴿ إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في

---

(١) ميزان الحكمة : ج ٥ ، ص ٥٤٧ .

(٢) ميزان الحكمة : ج ٥ ، ص ٥٤٧ .

بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾[1] .

بل حثّ ووجّه إلى مراعاة اليتيم والتعامل معه بالحسنى وعدم إضاعة حقّه فمن وصايا أمير المؤمنين علي عليه السلام قبل الموت : الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيّعوا بحضرتكم ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله عزّ وجلّ له الجنّة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار »[2] .

فبُعد الطفل عن محطة التوجيه ، وانعدام الرّعاية والاهتمام ، وحرمانه من العطف والحنان وسط عائلته ، وحالات الشّقاق والخلافات بين والديه تنعكس بصورة تلقائية على نفسيّته ، فيشعر بعدم الاستقرار الوجداني الناجم عن فقدان شعوره بالأمان في أجواء دائمة التكدّر ، التي تنغّص عليه حلاوة الحياة وجمالها .

وكثيراً ما يكون الانحراف سلوكاً هروبياً من بيئة الأسرة المضطربة ، فيبحث جاهداً عن الرضا الوجداني والإشباع العاطفي في أجواء أُسر أخرى غير أسرته .

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٢) فروع الكافي: ج ٧، ص ٥١.

العقبات التي تواجهها الأسرة

الشجار الدائم بين الزوجين :

إن الطفل الذي يشاهد ويرىٰ أبويه في حالة خصام دائم ، وشجار متكرر ، يمتلىء حقداً وكراهية عليهما ، أو علىٰ أحدهما دون الآخر ، إذ يرىٰ أحدهما ظالماً والآخر مظلوماً ، وغالباً ما يقف الطفل بجانب والدته ، لإحساسه بمظلوميتها ، ويقف موقفاً معادياً من والده ، أو ربما وقف مع أبيه في مواجهة أمّه ، مما يؤدّي إلى شرخ العلاقة الأسرية بينهم ، فيسبب ذلك خللاً في صورة والديه في ذهنه ووجدانه ، فيشعر بالخوف والقلق وعدم الأمان والطمأنينة في أجواء البيت الموبوءة .

وقد يؤدي هذا الشجار الدائم في كيان الأسرة ، إلىٰ تصويب شحنة الضجر والشقاق والغضب صوب الطفل ، ويقوم الوالدان أو أحدهما بتوبيخه وضربه دون أي سبب يذكر ، ممّا يشعر الطفل بالغبن والظلم والقهر ، فيحاول الهروب من البيت بأية وسيلة كانت ، للتخلّص من هذا الوضع السيّء .

فإحساس الطفل بالانتماء إلىٰ أسرته ليس لأنّها مصدر

غذائه ، ومحل إقامته فحسب ، بل لأنها تعني لمّ أفراد الأسرة في إطار المسكن ، وتجميعهم في جهاز متكامل يتكوّن من الوالدين والإخوان والأخوات ، ناهيك عن أن المسكن بالنسبة إليه ولبقية أفراد الأسرة ضمان للدفء والحماية ، وإشعارهم بالأمان والاستقرار .

خروج المرأة للعمل :

إن الوقت الذي يقضيه الطفل بمفرده ، أثناء غياب والديه يجعل مهمة تربيته التربية السوية شاقة وعسيرة ، ذلك لأن هناك مسافة شاسعة بينه وبينهم فرضتها الظروف العمليّة ، مما يؤدّي إلى انفصال العلاقة العاطفية بينهما ، وانكماشها إلىٰ الحدّ الذي يدعو الابن إلىٰ معاشرة أهل السوء .

إن غياب الأب عن البيت له أضرار بالغة الأهمية ، بخاصة بالنسبة للآباء الذين يتغيبون لأسابيع وربما لأشهر ، لا يرون فيها أولادهم ، فتبقىٰ مسؤولية الرعاية والتربية شاقة علىٰ الأم ، لأنها ستقوم بدور الأم ودور الأب في آن واحد مما يجعل عملية التربية عملية شاقّة ويفقدها في غالب الوقت السيطرة على نمط سلوكهم وتصرفاتهم .

أمّا أن يفقد الطفل والديه في وقت واحد ، وينشغل

كلٌّ منهما بقضايا عمله ومتعلقاته ، ليبقىٰ الطفل أسير أفكاره ومشاعره ، مما يفقده أحد حاجاته النفسيّة وهي الحاجة الوجدانية لوجودهما كليهما ، أو وجود أحدهما معه . ليكتمل بناؤه النفسي والجسدي بمشاطرتهما همومه وشؤونه ، وتوجيهه التوجيه السليم .

فغياب الأم عن المنزل ، في فترة غياب الطفل وانضمامه إلى دار الحضانة أو رياض الأطفال أو المدرسة ، ثم التقاؤها معه من منتصف النهار إلى آخر المساء كان ذلك كفيلٌ بأن تشبعه أو علىٰ الأقل تسدّ حاجته الوجدانية في احتياجه إليها ، وإلى حنانها وعطفها ، لتنسيه كلّ ما علق في نفسيته من متاعب لقيها خلال النهار .

أمّا في حالة انشغالها أغلب الوقت ، وعدم توفّر القسط الكافي للبقاء مع الطفل ، وسدّ حاجياته النفسية والخدماتية ، فيجب علىٰ المؤسسات التربوية والتعليميّة أن تضاعف الجهود وتقوم بدورها الأساسي في بناء الطفل نفسياً وجسدياً تعويضاً عما فقده من والديه وأسرته .

الانحلال والتفسّخ الأخلاقي :

إن الثمرة الناضجة والسليمة ، سرعان ما تفسد ، بوضعها مع الثمار الفاسدة وهكذا الحال بالنسبة للطفل الذي

ينشأ في أجواء ملوّثة ، إذ يلتقط وبأسرع ما يمكن العادات السيّئة من محيطه الأسري .

فالأب ذو السلوك الفاسد ، والأم المنحلّة أخلاقياً ، والأخوة القابعين على التصرفات المستهجنة ، كلّها عوامل مساعدة ، تدفعه دفعاً لامتثال السلوك الخاطىء ، وممارسة العادات السيّئة .

فلذا يعدّ الانحلال الخلقي في الأسرة في مقدمة العوامل التي تقود الحدث إلىٰ الانحراف ، ويقصد بالانحلال الخلقي انعدام القيم الروحيّة ، وفقدان المثل العليا ، واختلال المعايير الاجتماعية داخل جدران المنزل ، ومثل هذه الأسرة تكون الحياة فيها مجرّدة من معاني الشرف أو الفضيلة أو السلوك الطيّب ، وتصبح فيها الجريمة والانحراف وسوء الخلق ، أمراً عادياً ، لا يرىٰ فيهما أفراد الأسرة غضاضة ، ولا يحسّون بممارستها معنىٰ الخطيئة .

وأهم عوامل الانهيار الأخلاقي داخل الأسرة ، بل وأخطرها هو انحراف الوالدين ، أحدهما أو كلاهما ، وليس من الضروري أن يقوم الوالدان بعمل ما لإرضاع الأطفال هذا الإنحراف ، بل يكفي أن يشبّ الحدث في هذه البيئة الفاسدة ، لكي يستمرىء الانحراف ويصبح ارتكاب

الجريمة أمراً مستساغاً .

فالأب يعدّ منحرفاً من الوجهة النفسية والاجتماعية ، إذا كان سارقاً أو قاتلاً أو من تجار المخدرات أو عاشقاً أو منحرفاً جنسيّاً أو مهملاً لواجباته تجاه زوجته وأبنائه . ويتخذ انحراف الأم مظاهر شتّى أشهرها أن تكون الأم خليعة مستهترة أو فاضحة متبرجة أو سكيرة أو مقامرة ، أو تكون ذات علاقات مريبة ، وقد ينتهي سلوكها المعوجّ إلى احتراف الرذيلة أو تسهيل احترافها ، وفي هذه الحالة يكون أثر الأم علىٰ البنات أشد وأوضح من تأثيرها على أولادها الذكور ، وقد يرجع ذلك إلىٰ كون البنات سيّما في سنّ المراهقة ، يكنّ أكثر التصاقاً بأمّهاتهنّ ، وأكثر رغبة في تقليدهنّ[1] .

فالأسرة تصبح رمزاً لحياة أبنائها ، ومثالاً يحتذىٰ به ، إذ تتشكّل قاعدتهم الخلقية من أنماط السلوك المبتذل ، الذي ترسّخ في عهدهم الباكر ، ليكون انطلاقة لكل السلوكيات اللاأخلاقية التي بدأوا بممارستها والإضافة عليها ، وتطويرها . إذ يمارس الطفل خطيئة والده ، ويكرر تلك الخطيئة ، وقد يتفوّق بتطوره الإجرامي علىٰ أبيه بكثير . فالأب السارق مثلاً يسرق في حدود ضيقة جداً إذ

---

(١) جنوح الأحداث : وليد حيدر ، ص ٢٢٣ .

يكتفي بسرقة محفظة أحد المارّة ، أمّا الابن فإنه يبدأ تلميذاً في مدرسة أبيه ليبدأ بسيطاً حتى تتفتق أفكاره الإجراميّة للتخطيط والإعداد لسرقة الممتلكات العامة كالبنوك والشركات .. وهكذا بقية أنماط السلوك الإجرامي الأخرى .

ولأن الأسرة هي المجال البنيوي الأول الذي يعد الطفل للانخراط في ركب الحياة الإجتماعية ، وإعداده إعداداً متكاملاً ليكون العنصر الفاعل والمتفاعل في محيطه الإجتماعي . على العكس تماماً فإن الأسرة الفاقدة للمعايير والقيم الأخلاقية والساقطة في وحل الخطيئة تشرّب أبناءها كلّ الرذيلة والبطالة ، لترجع حركة المجتمع عشرات الخطوات إلى الوراء ، وتقضي على معاني النبل والفضيلة ولا تترك لها أثراً .

تدنّي المستوى الثقافي :

لا يختلف اثنان في أن هناك فارقاً واضحاً بين الإنسان المثقّف والإنسان الجاهل . فالجاهل لا يستطيع أن يلمّ بكلّ المتغيرات التي تحدث على أرض الواقع وبخاصة في عصر سريع ومتبدّل .

فالجهل في المستوى الثقافي ، وعدم الإلمام بمفاهيم

التربية الصحيحة ، وأسسها النفسية والإجتماعية ، تجعل الجاهل عاجزاً عن مواجهة المشاكل بالطريقة العلمية والعقلية وغير متمكن من حصرها وإيجاد الحلول حيالها ، وهو في الوقت ذاته يفتقد إلى الوضوح والإنارة في معالجة قضاياه الأسرية والاجتماعية لتعامله التلقائي والفطريّ معها . كما لا يمكنه أن يواجه العجز الماليّ الذي قد يتعرّض له في فترة ما في حياته .

فـالجـاهـل . . لا يمتلـك إلا الأسلـوب التقليـديّ ، والنمط الحياتيّ الروتينيّ الذي ألفه وتعوّد عليه ، وهذا هو مصدر ثقافته .

فالماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة إليه وحدة واحدة ، لا تخضع للتغيّر أو التبدّل . فما بالك أن يكون هذا الجاهل ربّاً لأسرة كاملة ! وفي هذه الظروف السريعة التغيُّر والتبدّل ، فإذا كان الواعي والمثقف يسعىٰ جاهداً لبناء أسرة نموذجية ، فيقف مع كل ظاهرة برزت على سلوك أبنائه ، ويدرس كلّ تصرف مستجد لفت نظره ، ويحاول أن يدرس مشاكل أبنائه ليضع الحلول المناسبة لكل منها بمعايير العلم والعقل ، وقد يخطىء خطأً بسيطاً قد يدفع ثمن ذلك باهظاً !

فكيـف لأب جـاهـل يعـالـج كـل المشـاكـل بتلقـائيـة

وبساطة ، أن يأمن على أبنائه ويطمئن على سلامتهم من خطر الانحراف والتمرّد ؟

فالجاهل . . ليس من لا يقرأ ولا يكتب فقد يكن هذا مربياً قديراً ، وإنما الجاهل جهلاً مُطبقاً ، هو الذي لا يعي كيف يُسيّر أموره ، وكيف يخرج من دائرة المشاكل التي تواجهه في الحياة بعيداً عن إخضاعها لموازين العقل أو معايير العلم .

والمحصلة أن انحسار المستوىٰ الثقافيّ في الأسرة ، له آثاره السيّئة في مجالي التربية والتعليم .

زيادة عدد الأبناء :

إن الظروف التي تعيشها الأسرة المعاصرة ، تختلف كمّاً وكيفاً عن الأسرة في الماضي ، فلنقارن بينهما في قضايا الإنجاب والرعاية للأبناء ، فالأسرة في الماضي كانت تؤدّي دورها التربويّ بحدود الضابط الأخلاقي ، والقيد الديني ، فعلىٰ الرغم من كثرة الأبناء ، إلا أن القليل من الأبناء كان يشذ عن هذا النظام ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة لسنا بصددها والبحث فيها ، ونكتفي بالإشارة إليها ، وعلى رأس هذه الأسباب : الحسّ الديني المتجذّر في أخلاقيات النّاس وسلوكياتهم ، وترابط الناس إجتماعياً ووجود حالة الالتحام

الوجداني الكامل بينهم إضافة إلىٰ بساطة الحياة المعيشية ، والعادات الصالحة الموروثة ، وتعلّق الأبناء بأسرهم ، والطاعة العمياء غالباً لرب الأسرة ، والولاء للجماعة . . كلّها لها تأثيرات بالغة الأهمية في اعتدال السلوك عند الإنسان ، وعدم الرغبة في الشذوذ عنها .

أمّا اليوم . . وتحت ظلّ المدنية الحديثة ، قلّت الرغبة في الإنجاب ، وأصبحت مسؤولية الأبوين التربوية ، صعبة وعسيرة ، تحتاج إلى النفس الطويل ، والصدر الرّحب لمعالجة مختلف المشاكل التي تواجه الأبناء ، ومع قلّة الأبناء ، إلاّ أن المشاكل التربوية والتعليميّة ترهق كاهل الأبوين ، وتزيد في قلقهم وإزعاجهم .

فالأسرة التي يزيد فيها عدد الأبناء لا يمكنها أن تقدّم الرعاية الإجتماعيّة والنفسيّة إلىٰ كل أبنائها ، فتقتصر علىٰ أداء الواجب الخدماتي فقط دون المستحسن ، ومن الأمثلة علىٰ ذلك ـ الرعاية الصحيحة ـ فزيادة عدد الأبناء ، يشكّل عبئاً إضافياً على الوالدين ، إذ لا يمكنهما بحال أن يتابعا بدقّة مواعيد كلّ فرد من أفراد أسرتهم في مواعيد الكشف الوقائي أو العلاجي ، والتلقيح للتحصن من الأمراض . فمن يحمل أعباء ابن واحد ومتابعة ظروفه النفسية والصحّية

والاجتماعية ، يختلف عمّن يحمل أعباء عشرة أبناء أو أكثر .

فكثرة الأبناء . . وعدم وجود الوقت الكافي ، أو القدرة الكافية لرعايتهم وتربيتهم ، ومتابعة وضعهم النفسيّ والاجتماعيّ والصحيّ والمدرسيّ ، من قِبَل والديهم ، يُعدّ مشكلة عسيرة تواجهها الأسرة وتضعف دورها التربويّ .

البيئة الأسرية ورعاية الأبناء :

إنّ للبيئة التي ينشأ فيها الطفل أثراً عظيماً علىٰ تكوينه ، ونمو أفكاره ونشاطاته وتكوين أخلاقياته التي يستمدّها ويكتسبها من خلال العلاقة السائدة بينه وبين والديه وإخوته .

فخلال السنين الأولىٰ من عمره الطفولي تتكوّن شخصيته ، لذلك لزم علىٰ الوالدين ومن يهمّه شأن الطفل أن يقضي علىٰ كلّ العراقيل والمشاكل التي بإمكانها تحطيم قلب الصغير ، ويحاول جعل الطفل خارج دائرة الاضطراب سواء في حالات الانفصام والشقاق بين الوالدين أو منازعات الأخوة ومشاجراتهم ، ففي كلتا الحالتين يتأثر الطفل بهذه الأجواء المضطربة ، ويشب في جو مشحون بالشقاقِ والعصبية .

فالطفل في مرحلة الطفولة المبكرة ، لا يكون خاضعاً لتأثير جماعة أخرىٰ غير أسرته . وهو إلىٰ ذلك سهل التأثّر ، شديد الحساسية ، شديد القابلية للاستهواء ، عنيف الانفعال ، قليل الخبرة ، ضعيف الإرادة ، لذلك فإن البيوت التي تفيض بالود والتفاهم والقائمة علىٰ الثقة والاحترام والتقدير والمحبة ، والتي تحتفظ بتوازن معتدل بين الحرية والقيد هي البيوت التي تخرج الأسوياء والسعداء والراشدين .

ويرىٰ الذين اهتموا بشؤون الأحداث المنحرفين أن من أهم العوامل التي تدمر الأطفال ، ترجع في مجملها إلى الأسرة ، سواء من ناحية إهمال الوالدين أو انفصالهم أو سلوكهم السيّء تجاه أولادهم ، أو النظام الفوضوي الذي تسير عليه الأسرة[١] .

إن مهمة الوالدين اليوم شاقّة وبالغة الصّعوبة ، فلم تعد وظيفتهم في تربية أبنائهم تقديم الجانب الخدماتي بتوفير المسكن وإعداد الطعام وإيجاد الملبس لهم فقط، وإنما رعاية الجانب الأهم والأكثر تعقيداً وهو تكوين

(١) الأحداث المنحرفون (عوامل الانحراف ـ المسؤولية الجزائية ـ التدابير) د. علي محمد جعفر، ص ٦٩ .

شخصياتهم ، وتحديد سلوكهم ، واتّباعهم الأساليب السليمة لنجاحهم في الحياة والوقوف أمام تقلّبات العصر بثبات وحزم راسخين .

فالأبناء يحتاجون في مثل هذا الوقت إلى سعة الصدر ، وتقديم العون لهم والنصيحة ، والمعاملة الحسنة ، بعيداً عن الانفعال والتعصّب .

فيجب على الأسرة أن تتحمل مسؤولياتها كاملة وبصورة صحيحة في المجالين التربوي والوقائي ، لتكون في مستوىٰ التطورات المستجدّة في هذا العصر السريع والمتطور ، وتبقىٰ الحصن الحصين الذي يُخرّج جيل الغد ، المزوّد بالمناعة اللازمة على مواجهة الحياة بثقة ، واستعداد كامل للقيام بالدور الإيجابي في المحيط الإجتماعي .

الفصل الرابع
المجتمع . وشذوذ الشخصية

النمو الاجتماعي الطبيعي للشخصية :

إن المطلب الأساسي لنموّ الشخصية نموّاً طبيعياً هو العلاقة الطيّبة والسليمة التي تربطها مع بقية أفراد المجتمع ، ويتحدّد مضمون هذا المطلب في الحديث القائل : « حب لأخيك ما تحبّ لنفسك » .

فلفظ الأخ هنا مطلق غير مقيّد ، والمقصود به إما الأخ في الدين ، أو النظير في الخلق ، كما قال الإمام علي عليه السلام .

فنظرة الإنسان إلى الآخرين . . هي ما ينظره الإنسان لنفسه علىٰ وجه الخصوص ، وقرن الحديث حبّ الإنسان لنفسه بحبّه لإخوانه المؤمنين . . إذ لا يوجد شيء أعزّ علىٰ الإنسان من حبّه لنفسه ، وحبّ المصلحة لها ، فكلّ ما يتمنّاه المرء لنفسه ، وجب أن يتمنّاه لإخوانه في المجتمع سواء بسواء .

ويتدرج النموّ الإجتماعي لدىٰ الشخصية ، بنموّ الثقة بالذات والشعور الواضح بكيان الشخصية وإمكاناتها وقدراتها ، لتتحمل مسؤوليتها الاجتماعية وتتقبّلها ، ليمتدّ اهتمامها إلى خارج ذاتها ، من خلال الوعي الكافي بالأوضاع والاتجاهات والقِيم والتقاليد التي تسود بيئة المجتمع .

كما أن الشخصية السويّة تنسج نظرة إيجابية سليمة عن بيئة المجتمع ، وتكون نظرتها إلىٰ المجتمع نظرة تقبّل وانسجام والتحام ، امتداداً لنظرتها الإيجابية حول نفسها وأسرتها . ويتأثر سلوك الشخصية الإجتماعي بالاتجاهات الفكريّة التي تؤمن بها وتعشقها ، والإتجاهات السائدة في محيط الأسرة ، فالأجواء الديمقراطيّة الانبساطية في الأسرة تساعد على نموّ الثقة بالذات ، واكتساب الأصدقاء ،

وامتثال السلوك الاجتماعي السويّ ، أمّا الأجواء المحكومة بالتسلّط والسّيطرة فإنّها لا تُخرّج إلا الانطوائيين أو المعقدين السذّج .

السلوك الاجتماعي المرضي للشخصية :

إنّ الشخصية المرضيّة ، عادة ما ترفض الانفتاح والانبساط ، فهي تنغلق حول ذاتها وتحتجب عن الناس ، وتكون العلاقة السائدة بينها وبين الآخرين علاقة غير طيّبة ، وأهم سلوك ظاهري يطفو على سطح شخصيتها : حبّ الأنا وتقديم حاجاتها علىٰ حساب حرمان الآخرين ، ضمن دائرة الحقد والكراهية .

فسلوك الشخصية المرضية الخاطىء ، لا يُعدّ خطراً عليها فحسب ، وإنما يمثّل خطراً حقيقياً تصل آثاره إلىٰ كافة البنىٰ الاجتماعية بدءاً بالأسرة ثم المدرسة ثم المجتمع ، وتنتقل أضراره إلىٰ تعرّض الآخرين للهلاك عن طريق السرقات أو الاعتداء أو القتل والإبادة .

فلذا اهتمّ علماء النفس وعلماء الاجتماع بالأمراض الاجتماعية ، أو ما يسمىٰ أحياناً الباثولوجيا الاجتماعية .

إن السلوك الاجتماعي في حدّ ذاته ، لا يمكن أن يقال

أنه سلوك منحرف أو غير منحرف ، سويّ أو مرضي ، ولكن الذي يصفه بهذه الصفة أو تلك هو تقييم المجتمع له في ضوء مدىٰ التزامه أو خروجه عن المعايير الاجتماعية للسلوك ، ويتفاوت التقييم الاجتماعي للسلوك من الموافقة التّامة إلىٰ الرفض البات ، ويتراوح ردّ فعل الآخرين بالنسبة للسلوك المنحرف من الاستهجان وعدم الموافقة إلىٰ المحاكمة والسجن ، وأحياناً الإعدام ، وقد يقع الإنسان في الانحراف منجرفاً في تيّاره أو مختاراً له ، أو على الرغم من إرادته ، أو نتيجة جهله ، أو ظروفه السيّئة[1] .

اضطراب المجتمع وتناقضه :

يعدّ التناقض الإجتماعيّ من أبرز الدوافع التي تسوق إلى الإنحراف ، وذلك بسبب تصادم الثقافات القديمة والحديثة ، وتضارب القيم الموروثة بمجموعة القيم المستحدثة ، والتضاد بين المُسلّمات الروحيّة للدين ، والانفتاح السلبي الاجتماعي ، المناقض لمبادىء هذا الدين وأهدافه ، وبين القناعات المذهبية والطائفية للفرد والحريّة الدينية في اعتناق الأفكار الروحيّة وبين ما يلمسه الفرد من صراعات وتناحر بين المذاهب والطوائف لإسقاط الكل من

(١)علم النفس الاجتماعي: د. حامد عبد السلام زهران، ص ٣٣٧.

أجل الجزء ، وكذا ملاحظة الشخصيّة : قيميّة النظم والمبادىء الإسلامية ، وصلاحيّة الدين ليحكم الحياة وبين من يمثّل الدين من أشخاص ينظرون إلىٰ الدين نظرة حرفية متزمّتة ، أو تلك التقليدية العلمانية الخاطئة التي فصلت بين الدين وتطبيقه علىٰ واقع الحياة لتأثّرها بالثقافة المستغربة وتقليدها إيّاها .

فكلّ هذه المؤثرات . . تدفع الإنسان من حيث يدري أو لا يدري إلىٰ الانحراف الفكريّ ، والذي يعقبه تلقائياً الانحراف في بيئة المجتمع .

وقد يؤدي هذا التناقض إلىٰ الانفصام في الشخصية السوية وحدوث اضطرابات فكريّة دائمة .

[إن طريق الرجل المعاصر نحو السعادة والهدوء ، شاقّ وعر يحفّه العديد من المشاكل الشخصية والاجتماعية والسياسية والعرقية المعقدة . لقد خلّفت الحروب الصغرىٰ ، والصراعات العرقيّة القوميّة أنواعاً حادّة من الألم والتشويه والأحقاد ، وتركت الاختراعات العلمية الحديثة جموعاً غفيرة من النّاس وبخاصة في الأمم المتحضّرة ضحية البطالة والفوضىٰ المهنيّة . وخلف التفجّر السكاني للبلدان النامية مشاكل صعبة وترك الصراع العرقي والقومي توترات

مستعصية وأحقاداً خلّفت وراءها جروحاً لا تندمل ، تنسحب آثارها علىٰ الفرد وعلىٰ المجتمعات . ويهرب الناس من مشاكلهم المستعصية إلىٰ الخمور والمخدّرات ، وتتفجر بنية أسرة المدمن ، وتتحطّم الأسرة ويعاني الأطفال والناشئة من مشاعر الرفض والضّياع ، ويحملون أوزار تلك المشاعر إلىٰ حياة الرشد فيجدون أنفسهم مسوقين بدوّامة والديهم ، لم يعف التطور العلمي الهائل الإنسان من التعرّض للمشاكل المعقّدة ، بل إنه لأمر غريب أن يترافق التطور العلميّ بأسئلة ملحّة ترتبط بوجود الإنسان ، وبمعنىٰ ذلك الوجود ، أن ثمة هوّة عميقة بين التطوّر الماديّ والعلميّ ، وبين التطور في مجالات القيم والتقاليد والممارسات السلوكيّة للمجتمعات ، إذ يملأ المجتمع رأسه بأفكار العدالة والإنسانيّة ومساعدة الشعوب الضعيفة ، ويحمله في نفس الوقت النابالم ليقذف بها الشعوب ، التي كلّ جريمتها أنها تكافح من أجل الوجود والاستقلال][1] .

إن وجود حالة التناقض في المحيط الاجتماعي ، وسرعة التحوّلات والتغيّرات الحضاريّة تتطلّب من الشخصيّة السويّة زيادة المرونة لتتمكن من مواكبة مجمل تلك

(١) علم الاضطرابات السلوكية : ص ٢٣ .

المتغيّرات ، واكتساب المزيد من الخبرات لتؤهلها للتلاؤم والتكيّف مع المواقف التي تجابهها وتصطدم معها على أرض الواقع الاجتماعي .

فالشخصيّة قادرة علىٰ تجاوز حالة التناقض والتباين في المواقف الاجتماعية ، أمامها العديد من الخيارات ، وهي صاحبة القرار في اختيار ما تراه الأنسب لنفسها وسلوكها وأهدافها .

فالتناقض الاجتماعيّ قد يكون مُعيقاً لتحسّن الشخصيَّة المرضيّة التي تفلسف المواقف الاجتماعية ضمن نظرتها السلبيّة للأشياء ، وهي لا تستطيع في المقابل أن تتفهّم حقيقة المتغيّرات السريعة فتبقىٰ كما هي دون تبدّل في السلوك ، أو تغيّر في المواقف .

مع العلم أن تجاوز حالة التضاد في السلوك الاجتماعي يتطلب الحضور وبذل الجهد ، والقيام بالمحاولات الدائبة في سبيل تحقيق حالة التوافق الاجتماعيّ ، وأن تكون جذوة الرغبة الملحة قابعة في نفسها للانسجام مع بيئتها الاجتماعية بالموازنة بين تفهمها لطبيعة المتغيّرات الحادثة وبين البقاء علىٰ سلوكها السوي .

الشخصية والعلاقات الاجتماعية :

إن العلاقة الوجدانية التي تربط الشخصية بأفراد الأسرة الصغيرة ، هي عينها العلاقة التي تربط الشخصية مع أفراد الأسرة الكبيرة أعني بيئة المجتمع ، فثمة رابط وجداني يدفع الشخصية باتجاه الحبّ والعطاء والتضحية للمجتمع .

فالشارع المقدس لم يغفل عن توضيح هذه العلاقة ضمن نظرته المتكاملة لسلامة البنية الآدمية فيقول تعالىٰ في سورة الحجرات :

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

فالعلاقة السليمة في نظرة الشخصية السويّة للآخرين هي علاقة إيجابيّة تنطلق من حبّ الشخصية لقيمها ومُثلِها العليا ، والتي علىٰ أساسها تتكامل الصورة البنيويّة للمجتمع ، فتتعامل مع أبناء المجتمع بروح أخويّة صادقة . . فكلّ من في المجتمع هو بمثابة الأخ والصديق . ولأن علاقة الشخصيّة بالمحيط الاجتماعي ، قابلة للصعود والهبوط والسلب والإيجاب وضعت الشريعة الإسلامية حدوداً ومعايير لسلامة هذه العلاقة .

يقول الإمام الصادق عليه‌السلام : « المؤمن أخو المؤمن ،

عينه ودليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يغشّه ، ولا يعده عدةً فيخلفه »[1] .

ويقول أيضاً عليه السلام : « إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم ، وإذا ضرب علىٰ رجل منهم عرق ، سهر له الآخرون »[2] .

إن خروج الشخصية من دائرة (الأنا) والانضمام إلى المحيط الاجتماعيّ ، وتنازل الشخصية الطوعي لتقديم المصالح العامة علىٰ المصالح الشخصيّة ، هو الجوهريّة التي تهدف إلىٰ تحقيقها الشريعة الاسلامية .

فحبّ الآخرين ، والخوف علىٰ مصالحهم ، والصدق في التعامل السلوكيّ معهم ، ومعرفة حقوقهم كاملةً وعدم تجاوزها للحرام ، وعدم اتّباع الأساليب الملتوية من الغش والخديعة والنفاق ، والوفاء بالوعد ، والإحساس العاطفي بنصرة المظلومين ، ومساعدة الضعفاء والبؤساء ، كلّها كفيلة لسلامة الهيكل العام للمجتمع ، بل إنّ هذا السلوك يتعدّىٰ حدود الشخصيّة إلى فئات المجتمع كافّة ليشكل سلوكاً إجتماعياً يمارسه الكبير والصغير على حدٍّ سواء .

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٢٦٨ .
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٤، ص ٢٦٤ .

الأسرة والمدرسة :

يولد الطفل ويخرج إلى الحياة ، بطريقة بيولوجية ، ثم يبدأ بتكوين علاقة ثنائيّة بينه وبين والدته التي تستجيب لمطالبه ، وتلبّي احتياجاته ، ثم تتطور هذه العلاقة لتشمل أفراد الأسرة جميعهم ، ويأخذ بعدها الحسّ الاجتماعي بالنموّ تدريجياً رويداً رويداً ، فيبدأ الطفل بالتفاعل مع بيئة المجتمع ، وما يحيط بها من مثيرات ومؤثّرات ، وقد يستجيب الطفل لبعض المؤثّرات وينتقيها انتقاءً من مجمل السلوكيات الاجتماعية السائدة ، ومعنى هذا : أن الطفل يمرّ بعمليّة تعليميّة ، يكتسب نتيجة لها الاستجابات السلوكيّة المختلفة التي يواجه بها مختلف المواقف في الحياة .

فالمؤسسات الاجتماعيّة بدءاً بالأسرة والمدرسة ومراكز التدريب ، والنوادي الرياضيّة والثقافية . . مسؤولة إلى حد كبير عن تربية الطفل وسلامة بنيته النفسيّة والجسديّة ، فاتحاد الدور التربوي لهذه المؤسسات وإكمال كلٍّ منها دور الأخرىٰ والتعاون بين مختلف هذه المؤسسات هو الغاية للوصول بالطفل إلىٰ شاطىء الأمان .

ففي العقود الأولىٰ كانت الأسرة هي المسؤولة عن

الجانبين التربويّ والتعليميّ لأبنائها فكانت المدرسة التي يكتسب منها الفرد الخبرات والثقافات والمهارات المختلفة جميعها .

أمّا في العقود المتأخرة فقد تساوت فيها مسؤولية الأسرة مع مسؤولية المدرسة ، فكلّ مؤسّسة منهما تكمّل دور الأخرىٰ ، بل أصبحت المدرسة اليوم أكبر الروافد تأثيراً علىٰ ثقافة الطفل ، وتحديد انتماءاته الفكريّة والعقائديّة والثقافيّة .

ونظراً للظروف غير الطبيعية التي تواجهها الأسرة من : غياب الوالدين ، وفقدان الارتباط الوجداني ، وتسيّب الجانب التربويّ والتوجيهيّ بين أفراد الأسرة الواحدة ، كان من الضروري قيام المدرسة بالجزء الأكبر في سد ثغرة الإهمال الأسريّ ، والتعويض عنه ببذل المزيد من الجهد في تعديل سلوك الطفل ، والاهتمام ببناء الجانب السيكولوجي والبيولوجي في شخصيّته مع الحرص علىٰ إبقاء حلقة تواصل منظمة وممنهجة بين بيئتي الأسرة والمدرسة لئلا تهدم الأولىٰ ما تبنيه الثانية .

الأمراض الاجتماعية

ـ الحرمان :

لا يشعر بحقيقة هذا المرض إلاَّ أولئك المحرومون والبؤساء ، الذين يقطنون العشش ، والأحياء القديمة وفي الأرياف البعيدة عن آثار المدنية الحديثة ووسائلها المريحة .

فالحرمان الاقتصادي الذي يعانونه في المأكل والمشرب وَالملبس، وحالة الفقر والفاقة والعوز، لها آثارها البالغة الخطورة علىٰ أوضاعهم النفسيّة والجسديّة، فالمرء لا يدفع عن نفسه الأخطار ، ولا يحمي نفسه من حرارة الطقس وبرودته، وقد يثقل المرض على أحد أفراد عائلته دون أن يحصل علىٰ قنّينة دواء لإسعافه وإنقاذ حياته، فكلّ هذه الصور الدراميَّة تشغل تفكيره، وتحرمه لذّة الراحة والسّعادة .

فالفقير والمحروم لا يفكّر كما يفكّر الشخص السويّ من النّاس ، بل هو سارح الفكر وشارد البال ، لا يفكّر إلاَّ في همومه ومتاعبه وحياته التعيسة ، فهو يرفض التسوّل والتشرّد والسرقة والانحراف ، ويؤمن بالعمل الشريف ، والاعتماد علىٰ النّفس والقناعة ، ولكن ظروف العصر الضاغطة والحرمان ، يجبرانه لسلوك طريق الانحراف ، فالحياة قاسية لا ترحم الضعفاء أمثاله ، ولا مجال للقيم

والمبادىء التي يؤمن بها ، طالما لا تغيّر من واقعه المؤلم شيئاً .

فالحرمان أحد الأمراض المتفشية في المحيط الاجتماعي . وكثيراً ما كان سبباً رئيسياً مؤدّياً للانحراف .

وقد يتجلىٰ الحرمان في لباس آخر وذلك بالضغط علىٰ الابن بانتهاج طريقة معيّنة في سلوكه وأخلاقه لا تتوافق مع رغباته ، وبخاصة في طفولته الباكرة ، بحرمانه من اللعب مع أقرانه ، والشّدّة والعنف في التعامل معه ، ورفض مطالبه جميعها ، والوقوف حائلاً دون تحقيق أمانيه وأحلامه الوردية ، والقسوة والضرب عند المخالفة لمطالب والديه ، مما يجرّ الابن إلى إفراغ هذا الكبت بطريقة غير سوية ، وفي محيط بعيد عن أعين الأهل والمربّين .

فعدم إشباع حاجات الطفل ورغباته قد تولّد لديه حالة الكبت ، فتطفو علىٰ سلوكه علىٰ شكل سلوك عدواني ، أو تمرّد على واقعه الأسري ، فيقوده ذلك تدريجياً إلىٰ التشرّد والتسوّل والانضمام إلىٰ جماعة المنحرفين ، ويسبب ذلك حدوث انشراخ عميق في الرابطة الوجدانية التي تربطه بوالديه وإخوته ، ويشعر بالضّياع والتفكّك ، ويبدأ بممارسة السلوك الشّاذ والخاطىء .

وقد ينتج عن عدم إشباع الشخصية لحاجاتها سلوكها طريق الانحراف في تلبيتها لحاجاتها ورغباتها ، وتستخدم لتحقيق ذلك الأساليب المعوجّة ، والسلوكيات الخاطئة كالخداع والغش والخيانة ، وكلما ضغطت الحاجة على الشخصيّة ، ازدادت حدّة الشخصية وتمرّدها على واقعها الذي تحياه ، فتنتهج كلّ ما من شأنه أن ينفّس عنها الكرب والضيق ، ويزيح عن كاهلها الهموم والآلام ، وقد تبقى الشخصية في حالة صراع دائم بينها وبين ضميرها اليقظ في سبيل العدول عن ممارسة كلّ أمر شاذ ، وربما تألف الشخصيّة المرضيّة هذا النمط السلوكيّ المنحرف ، لأنه سلوك قلّما يفتقد إلى الجهد والصّبر والتحمّل . فتسلك الطرق السهلة لتحقيق الفوز والغلبة عن طريق الغش وأكل الحرام وإيذاء الآخرين ، ومع بروز هذه السلوكيات الانحرافية يتصدّع بنيان المجتمع ويكون عرضة للانهدام والتحطّم .

وتعالج الآيات القرآنية هذا الوباء ، وذلك بالنهي القاطع عن اتّباع الأساليب الملتوية في بلوغ الأهداف عن طريق الظلم والبغي والتعرّض بالأذى للآخرين في المجتمع .

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾[1] .

﴿ قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ﴾[2] .

﴿ إنما السبيل علىٰ الذين يظلمون النّاس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾[3] .

﴿ وتـرىٰ كثيـراً منهـم يسـارعـون فـي الإثـم والعـدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾[4] .

.. ونافلة القول يجب علىٰ الشخصيّة السويّة مواجهة الواقع الذي تعيشه ، وتحمّله كما هو ، والتزوّد بسلاح التقوىٰ والصّبر لتخطي الأزمات العصيبة ، فبالصبر تتجاوز الشخصيّة صعوبات الحياة ، وبالصبر أيضاً تكون قادرة علىٰ قهر الظروف مهما تكن صعبة وقاسية ، وإن كانت فوق حدود التصوّر ، وقد لا تواجه الضغوط والحرمان والألم إلاّ في فترات متقطعة ، وهنا يجب على الشخصيّة الثبات وعدم

---

(١)سورة الأحزاب، الآية: ٥٨ .
(٢)سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٣)سورة الشورى، الآية: ٤٢.
(٤)سورة المائدة، الآية: ٦٢ .

التزعزع في المواقف والأدوار التي تقوم بها .

﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين ﴾[1] .

﴿ ... والصابرين في البأساء والضرّاء وحينَ البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتّقون ﴾[2] .

أمّـا حيـن تـواجـه الشخصيّـة الهمـوم والآلام طـوال مسيرتها في الحياة فهنا يجب عليها إعادة النظر في الكثير من الأمور التي قد تتعلّق مثلاً بالعمل والوظيفة ، أو في محل الإقامة ، وذلك بالبحث عن البديل ، عن عمل آخر ، أو في موقع بعيد عن موقعه السابق ، وتجاوز الواقع المرير بالثّقة بالله والتوكّل عليه ، والصّبر علىٰ مصاعب الحياة .

قـال تعـالـىٰ : ﴿ الـذيـن صبـروا وعلـىٰ ربّهـم يتوكّلون ﴾[3] .

كمـا يجـب علـىٰ الشخصيّـة اتّبـاع الطـرق السليمـة والشرعيّة في نيل الأهداف وبلوغ الغايات وإن كانت الطريقة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥ .
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧ .
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥٩ .

شاقة وعسيرة والابتعاد عن ممارسة الأساليب الملتوية وإن كان الطريق لتحقيقها سهلاً ميسّراً .

ـ الطفرة الاقتصادية :

إن التحوّل السّريع في النمط المعيشي الذي تعيشه الشخصية من ظرف الحاجة والعناء إلى القفزة النوعيّة في تدفق المورد المالي يجعلها غير قادرة علىٰ إدارة شؤونها المالية بالشكل المتعقّل والمنطقي ، فقد تصدف الشخصيّة الكثير من الأموال علىٰ الأمور الثانوية ، وتهمل أوليّة الأسس ، فانتقال الشخصيّة من حالة التعطُّش إلى حالة الشعور بالارتواء الكامل في فترة زمنيّة محدّدة ، يؤدي إلىٰ الإفراط أو التفريط في التعامل مع الأموال والإيرادات والتي بموجبها يتحدّد تعقّل الشخصيّة أو انحرافها .

فالفلاح البسيط الذي يبيت أكثر الليالي جائعاً مع عائلته وصغاره ، بسبب قلّة الأمطار أو بسبب سوء الموسم الزراعيّ ، وتتهيّأ له الظروف بعدئذ ليرتّب وضعه المالي ويحسّنه بسبب سيادة الصناعة والتجارة في المجتمع ، وتدفّق الأموال والأرباح على أيدي الكثيرين جعل الفلاح يتخلّىٰ عن أرضه وفلاحته ، ويتوجّه إلىٰ الجانب الصناعي ليحصل على المزيد من الأموال كما يحصل غيره .

وقد يؤدّي هذا التغيّر النوعيّ إلىٰ تفهّم الشخصيّة وتعقّلها في التصرف بالأمور ، وقد تشذ عن ذلك وتنحرف عن الطريق السوي .

فلذا جاءت الطفرة النوعيَّة في المستوىٰ المعيشي عكس التيار ، فكانت سبباً رئيسياً مؤدياً إلىٰ الانحراف ، فإذا سلّمنا بأن المال غالباً ما يكون نقمة علىٰ الشخصيَّة في الظرف الطبيعي ، وهو الارتقاء الاقتصادي بالشكل المرحليّ ، أما الطفرة السريعة والتحوّل النوعيّ في الظرف غير الطبيعي فله مساوئه وعيوبه من حيث الآثار المترتبة علىٰ ذلك .

فالخلل لا يكمن في السلوك المستحدث ضمن اقتناء المسكن الفخم ، والأثاث الراقي ، والسيارة الأنيقة ، فهذا كله لا غبار عليه ، إن الخلل الحقيقي هو : في طريقة التفكير المشوّشة في رفض الشخصيّة لكلّ ما هو قديم ، وانبهارها بكلّ ما هو جديد ، لتتحوّل فيما بعد إلى مرحلة الإنسلاخ عن الجذور التاريخيّة ، ورفض العادات والتقاليد والتي تمثّل بدورها ثقافة المجتمع ، وحالة التقليد الأعمىٰ لكلّ دخيل ومستورد على السلوك والعادات الاجتماعية ، وبرز حبّ الأنا ، وتحطيم الآخرين من أجل المصلحة الشخصيّة ، مما

يؤدي إلىٰ تفكّك البنية الاجتماعية وتصدّعها .

إن بروز حبّ الذّات ، وسيادة قانون الفرد ، واللهف أمام المصالح والأغراض الشخصية ، أدىٰ إلىٰ وضوح النموّ العمودي ، وانحسار النمو الأفقي ، فيبقىٰ المجتمع شبيهاً بمجتمع الغاب ، فالكبير يأكل الصغير ، والصغير مظلوم ، مقهور أمام سيادة الكبير وسيطرته ، وهذا خلاف ما ألفه العرف الاجتماعي . ضمن قوالب النظرة الإسلاميّة الأصيلة ، التي لم تفرق بين الشخصية والآخرين ، فالكل سواء تجمعهم الكلمة الواحدة ، والهدف المشترك ، بل إن الكبير يرحم الصغير ، والغني يشارك الفقير بماله . ولا تفاضل إلا وفق معيار واحد وهو معيار تقوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ .

ـ فقدان الثقة :

بقدر ما ينجرف الكثيرون في المجتمع نحو التيار المادي ، والتسابق اللاإيجابي وراء المادة ، وسحق المبادىء ، ورفض القيم والأخلاق ، والتفكير في السعادة الخاصة وتلبية الحاجات الذاتية ضمن قانون سيطرة الفرد علىٰ حساب مصالح الآخرين وحاجاتهم ، تقابلنا صورة أخرىٰ لمن يشعر بضغط الحاجة في مجتمع لا يشعر

بحاجته ، فالفقير الذي لا يملك ما يسدّ به رمق عياله من الطّعام ، ولا يملك الإمكانات التي تقيه حرارة الصيف وبرودة الشتاء ، فكلّما ضغطت الحاجة عليه من جانب ، ولم يرَ من يتفهم حقيقة هذا الواقع المؤلم الذي يحياه ويكابده من جانب آخر ، فإن يده قد تمتد قهراً للحرام من أجل أن يطعم عياله ويسدّ حاجاتهم .

فمع وجود هذه الظواهر غير الطبيعية من الاختلاس والمكر والتحايل والغش والتزوير تفقد الشخصية الثقة بالآخرين ، مما يشكّل فيما بعد زعزعة الروابط الاجتماعية ، وعدم الثقة بين الناس ، والخوف من التعامل مع المجتمع .

كما أن لحظة بروز هذه السمات علىٰ السطح للسلوك العام للمجتمع يعني بشكل أدقّ تفتّت البنية الاجتماعية ، فتنسحب الشخصية إلىٰ داخل ذاتها ، ونطاقها المحدود ، وترفض بشكل قاطع أن تتعامل مع هذا المجتمع أو تتفاعل معه ، كما أنَّ هذه السّمات قد تؤدي إلى فقدان ثقة المجتمع في حقّه نفسه وإمكاناته ، وعدم مقدرته على تجاوز هذا الواقع ، وبالتالي إخماد حالة الرّغبة في تحقيق الطّموح لديه ، فكيف يتمكن المجتمع من التقدم والتطوّر طالما

يفتقد إلى التفاعل بين أفكار الأفراد واتجاهاتهم والذين يمثّلون بدورهم المجتمع .

فإذا كان المجتمع مريضاً وجب علىٰ الشخصية السويّة أن تجمع بين بنائها لشخصيتها وإحساسها بقيمتها وبين تفاعلها الحقيقيّ مع واقع المجتمع ، والأمل الذي يحذوها للوصول بمجتمعها نحو مستقبل أفضل .

الفصل الخامس
الشخصيّة ... والانحراف الأخلاقي

حين يمسك المرء كتاباً أو جريدة أو مجلة ، ويتصفح الأبواب الاجتماعية ، فإنه لا يرىٰ إلاّ الواقع الدراميّ ، والحقيقة المأساوية للمشاكل الأخلاقية التي تتخذ طابع التوسّع والانتشار في عالمنا الإسلاميّ اليوم ، وكأنما هذا المجتمع الإسلامي الكبير يفتقد إلى المنهج القويم الذي تكفل بوضع الحلول المناسبة ، وفق مختلف الظروف المحيطة بظواهر الشذوذ والانحراف .

ومما يجعلنا أكثر ألماً وتحسّراً ، هو الطمس الحقيقي

لدور المنهج ، وغضّ الطّرف عن الدستور الذي يتكفل بوضع الحلول الجذريّة لكلّ المشاكل الاجتماعيَّة والأخلاقيّة القائمة .

وتزداد المشكلة إتساعاً في رجوعنا ـ نحن المسلمين ـ لأخذ الحلول الوقتيّة التي سرعان ما تفقد دورها في زحمة مشاكل الحياة اليوميّة المتصاعدة من مصادر مشبوهة لا تمتّ إلىٰ الإسلام بصلة ، فإن وضع مثل هذه الحلول التحذيريّة المصطدمة مع القيم الجوهريّة للدّين ، والحسّ الأخلاقي الموروث ، وضابط العادات والتقاليد جعلها مخفقة وخاسرة علىٰ المدىٰ القريب والمدى البعيد ، لأنها قد تكون متناسبة مع المحيط الغربي . أما في الوسط الإسلامي الذي تضبطه الأعراف الإجتماعيّة ، وتحكمه العادات والتقاليد ، فمن الصعب جداً أن نحصل علىٰ النتائج نفسها ، ذلك لأن المجتمع الغربي قد أَلِفَ هذا النوع من الجرائم الأخلاقية في الشارع اليومي ، ولم يعد يُعير هذه الظواهر أيّ نوع من الأهمية ، بل ولم يعد يحرّك ساكناً تجاه كلّ هذه الظواهر الشّاذة التي تهدّد المجتمع بالسقوط يوماً بعد يوم آخر .

فالجريمة الأخلاقية في البيت ، وفي الشّارع ، وفي المدرسة ، وفي دائرة العمل وفي وسيلة النقل ، و . . .

و . . . أما في المجتمع الإسلامي فإنه يرفض هذا النوع من الظواهر غير الطبيعية ، ويعدّها جريمة في حقّ الفرد والمجتمع ، وخرقاً واضحاً للنظم والقيم التي تسود المجتمع ، ولذا فهو يحاربها في كلّ موقع . المرء مثلاً قد يقترف جريمة ما ، لكنّه يرفض وبشدّة أن يكْون أخوه صورة منه . فالحسّ الأخلاقي ، والقيم الموروثة ، والتربية الصالحة ، تظهر على السّطح مباشرة مع أقلّ خطأ أو منكر قد يحدث .

أما القانون الإسلاميّ ، فقد بالغ هو الآخر في أهمية الظاهرة الأخلاقية التي تخترق حصن الأسرة وسورها ، وتهدّد الهيكل البنيويّ للمجتمع بالتصدّع والانهيار ، فاستخدم أسلوب الحسم للقضاء على الانحرافات الأخلاقيَّة ، ووضع نظاماً تفصيلياً دقيقاً لتنفيذ الحدود الشرعيّة حصانة للأسرة وتطهيراً لأرضية المجتمع .

ـ الدافع الجنسي وتأثيراته علىٰ السلوك :

إن حاجة الإنسان لإشباع غرائزه تقنن في نظر الدين بطرق الحلال المباح وليس بنقيضه المحرّم ، وبخاصة غريزة الجنس ، وتأثير قوّة هذه الغريزة علىٰ سمات الشخصيَّة ، وانطباعها علىٰ سلوكها العام ، علىٰ الرغم من الفوارق التي

تميّز هذه الغريزة عن باقي الغرائز بالنسبة للحاجة الأوليّة ومدىٰ الاستجابة لها .

يعد (الجنس) واحداً من الدوافع (الحيويّة) في تركيبة الكائن الآدميّ ، ويتميّز هذا الدافع بإلحاحه في السلوك إلىٰ الدرجة التي تلفت الانتباه ، على الرغم من كونه لا يجسّد حاجة أوليّة في قائمة الدوافع ، فالنوم أو الطعام مثلاً يجسّدان حاجة (حيوية) أيضاً ، لكنّها (أولية) لا بد من إشباعها بأية حال بنحو لا يمكن تأجيل ذلك ، وإلاّ تعرّض الكائن الآدمي إلى التلف عقلياً وجسمياً ، في حين أنَّ الحاجة الجنسيّة من الممكن ممارسة (التأجيل) حيالها دون أن يترتب علىٰ ذلك انهيار عقلي أو موت ، كما هو شأن دافعي النوم والطعام .

ولكن . . مع ذلك كله ، يظلّ الدافع الجنسيّ أشدّ إلحاحاً من سائر الدوافع البيولوجيّة في شتّىٰ انعكاساته على السلوك[1] .

وبرغم أهمية هذا الدافع ، وخطورته الأنيّة والمستقبليّة على حياة المستجيب له ، والخاضع لإثاراته ،

(١)الإسلام وعلم النفس: د. محمود البستاني، ص ٢٧٢.

إلاّ أن الإنسان كيف مع الكفة الأخرىٰ في ميزان الصراع ، ويمتلك الثبات في مواجهة هذا الدافع الغريزيّ ، وذلك ضمن الطرق المشروعة ، والعلاقة الزوجيّة السليمة التي تحفظ لكلا الجنسين كرامتهما وعفّتهما وإنسانيّتهما ، بل وتنظّم حياة الأفراد في المحيط الاجتماعيّ على مبدأ الاحترام المتبادل ، ومعرفة حدود العلاقة التي تربط كلاً منهما بالآخر ، وفق القوانين العامة ، والنظم الاجتماعيّة التي تسود الاجتماع ضمن قوالب التربية الصالحة والبيئة السليمة .

[إن الجرائم الأخلاقيّة وهي من النوع الذي يدلّ علىٰ مدىٰ تحكّم الإنسان بغرائزه الأساسية فتنظيم المجتمعات ، والمحافظة على العائلة والنسل فرضا منذ القدم قواعد الغريزة الجنسية بحيث تتخذ مداها الطبيعي ضمن إطار من العلاقة الزوجيَّة الضابطة للاتصال الجنسي ، والمحافظة للعلاقة الإنسانيّة بين الرجل والمرأة .

وتعير المجتمعات الإنسانيّة المنظّمة أهميّة كبرىٰ لضبط هذه العلاقة وتنظيمها بحيث يسمو الإنسان فوق حاجاته العضويّة ليعطيها معناها العاطفيّ الإنسانيّ ، وهذا ما يميّزه عن البهيميّة الملازمة للحياة الحيوانيّة ، لذلك نرىٰ أن

القوانين جاءت بالنواهي المقرونة بجزاءات كعقاب لكل مخالف لهذه النواهي .

والجرائم الجنسية والأخلاقيّة إنْ دلّت على شيء ، فإنها تدلّ علىٰ درجة عدم إدراك الإنسان لنوعيّة علاقاته بالآخرين وحدودها ، وضعف ضبطه لنزعته الغريزيّة ، وتكتسب عملية الضبط هذه ، بالتربية والتوجيه ، ولا شكّ أن الانحراف الأخلاقي دليل علىٰ ضعف تلك التربية][1] .

ـ الدافع الجنسي وتأثيرات العوامل النفسيّة والاجتماعية :

إن الـدافـع الجنسـيّ يلعـب دوراً بـارزاً علـى مسـرح السلوك العام للشخصيّة ، ولكنّه في الطرف الآخر يخضع تحت قوة تأثير العوامل النفسيّة والاجتماعيّة . فالمحيط الموبوء بهذه الثقافة المبتذلة ، وتمثيلها وممارستها سيختلف كمّاً وكيفاً عنه في المحيط الطبيعي وسيختلف أيضاً صاحب النفسيّة غير السويّة الذي يشعر بالاكتئاب والتعاسة والقهر عن نقيضه صاحب النفسيّة السليمة في استجابتهما لهذا الدافع وذلك نتيجة لاختلاف الظروف والمؤثّرات .

---

(١)التربية المدنية كوسيلة للوقاية من الانحراف: د. مصطفى العوجي، ص ٩٩.

فالشخصيّة السويّة تدفعها الحاجة لإشباع الغريزة الجنسيّة لديها بالتزاوج والتودّد والتكاثر ، فهي قادرة على إخمادها وضبطها وتوجيهها ضمن مسالك العلاقة الشرعيّة السليمة ، أما الشخصية غير السويّة فهي تنتهج الأساليب الملتوية وإشباع حاجاتها الغريزيّة بالطرق المحرّمة ضمن قوالب الشذوذ والانحراف . وعلى الرغم من أن الدافع الجنسيّ دافع أولي إلا أنّ للعوامل النفسيّة والاجتماعيّة أثراً بالغاً في إثارة الشهوة الجنسيّة وإخمادها ، وفي إفلاتها وضبطها أيضاً ، إن ضعف الوازع الدينيّ ، وسوء الأحوال المعيشية ، وحالة الحرمان والبؤس والفاقة ، وسوء التربية ، وفقدان الموجّه ، والجهل بطبيعة هذا المرض الأخلاقي وعدم معرفة الآثار المترتبة عليه كلّها عوامل مساعدة في ضمور هذه الغريزة أو أفولها .

ـ الانحرافات الأخلاقيّة وموقعها من الأمراض الاجتماعية :

إن الانحرافات الأخلاقية تتوسط قائمة الأمراض الاجتماعية ، فهي تتعدىٰ علىٰ المبادىء والقيم وتتجاوز النظم الدينية والاجتماعية ، وعلىٰ الرغم من زيادة اتّساع هذه الظواهر المرضيّة في الوسط الاجتماعي اليوم إلاّ أنّها لا تزال في قانون الاجتماع ظواهر شاذة بل وممقوتة ، ومحاربة

مـن قبـل العـرف الاجتمـاعـيّ والأخـلاق القـويمـة والنظـرة الدينيّة ، لذلك كان لا بدّ من اعتبار الشذوذ الجنسيّ تعدياً وحشياً علىٰ القيم ، يجر صاحبه للقبوع في قفص الاتهام ، وسقـوطـه فـي نظـر الفئـات والمـؤسسـات الاجتمـاعيـة ، واستحقاقه للقصاص والعقاب .

فالشخصيّة اللامسؤولة تسعىٰ للحصول على الإشباع الجنسيّ بطرق غير شرعية فتمارس الدعارة وتتاجر في أعـراض النـاس وفـي جنـح الليـل بـأسـاليـب الاستهتـار والاستسـلام الجنسـي بعيـداً عـن المسـؤوليـة الاجتمـاعيـة المطلوبة .

فإطلاق الغريزة وإشاعة الشذوذ الجنسيّ وانتشاره بين الناس له أخطار بالغة ومعقدة ففيه يهلك الحرث والنسل ، وتضيع بين جنباته الأنساب وتنهار أمامه قواعد الأخلاق ، وتنخفض مع وجوده الرغبة في الاستقرار والزواج .

لقـد أراد الشـارع المقـدّس أن تكـون الشخصيـة مثـالاً مجسد للفضيلة والخير ، بكل ما تحملهما هاتين الكلمتين من معنىٰ ولكن !

الشذوذ من ذلك والخروج عنه سهل للغاية . لقد اقتضت إرادة الشارع المقدّس إحلال النظام والدقّة في كلّ

شيء ، فرسم للشخصية الآدمية طريق الفوز كما بيّن طريق الهلاك ، والنهاية لكل طريق منهما ، إلاّ أن الخروج عن المألوف ، أمر مستحسن عند الكثيرين ، فالزنا هو شذوذ وتمرّد على النظام الذي أراده الشارع المقدّس ، فهو وباء سرطاني يسري في جسد الأمّة ، ويفكّك الروابط الاجتماعيّة ، ويفسد البلاد والعباد ، ويهلك النسل ، لذا اقتصرت إرادة الشارع المقدّس بأن يأخذ كلّ من تسوّل له نفسه ممارسة هذا الجرم ، العقاب الرادع حتى لا يعاود الكرة مرة أخرىٰ ، ولكي تكون هذه العقوبة عبرة لغيره ، يبقى المجتمع متماسكاً قويّاً .

ـ الواقع يشهد علىٰ جرائم الزنا :

[إن ما حدث في أوروبا والبلاد الغربيّة عامّة من تحلّل للجماعات الأوروبيّة ، وتصدّع وحدتهم وذهاب ريحها بسبب شيوع الفاحشة والفساد الخلقيّ والإباحيَّة التي لا تعرف حدّاً تنتهي إليه . وما أشاع الفاحشة ، وأفسد الأخلاق ، ونشر الإباحيَّة ، إلا إباحة الزنا وترك الأفراد لشهواتهم واعتبار الزنا من الأمور الشخصيّة التي لا تمس صالح الجماعة .

ولعلّ أشدّ ما تواجهه البلاد غير الإسلامية اليوم من

أزمات إجتماعيّة وسياسيّة يرجع إلىٰ إباحة الزنا ، فقد قلّ النسل في بعض الدول ، فهذه ظاهرة تنذر بفناء هذه الدول ، أو توقف نموها ، وترجع قلّة النسل أولاً وأخيراً إلى امتناع الكثيرين عن الزواج ، وإلى العقم الذي انتشر بين الأزواج][1] .

وما حدث في آسيا وافريقيا وفي البلاد الإسلامية من تتبّع وتقليد أعمىٰ لما انتهجته أوروبا بسياستها وإعلامها المضلّل لترويج أمثال هذه الثقافة الساقطة عبر وسائل الإعلام المختلفة من مجلات وجرائد وصحف وعلى شاشات التلفاز واستعراض يوميّ على مدار الساعة للممارسات الخليعة ، وتداول الأفلام الساقطة ، في المناخ العام للمجتمع الإسلامي . كلّ هذا كفيل بتدمير البنية الاجتماعية وتحطيم قائمة القيم والنظم الأخلاقية السائدة .

فظاهرة الزنا ، لم تكن وليدة الظروف الآنيّة ، بل هي ظاهرة قديمة ، بقِدم الزمن .

[فلقد انتشر الزنى منذ أقدم العصور ، فعمّ المعابد والهياكل ، ومارسته الشعوب على اختلاف أجناسها

(١)التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي: عبد القادر عودة، ج ٢، ص ٣٤٧.

ومذاهبها ، ولا سيما الحكّام وأرباب النفوذ والسلطان ، وكان يزداد انتشاراً ويخف تبعاً للأزمنة والأمكنة ، فتارة كانت تمارس الفاحشة جهاراً بدون خجل ووجل ، وأحياناً تمارس خفية وتستّراً .

ويعتبر الزّنا من أشد المعضلات الاجتماعية خطورة وفتكاً في كيان المجتمع البشريّ ، وقد تفشّى هذا الداء العضال في كلّ بقعة من بقاع العالم القديم والحديث على السّواء ، وكافحته الأديان السّماويّة والشرائع الوضعية والجمعيات الخيريّة والإصلاحيّة ، وسنّت من أجل مكافحته قوانين صارمة للحدّ من انتشار البغاء العلني والسري][1] .

ـ دوافع الانحرافات الجنسية :

تقع الشخصية تحت ضغوط كثيرة نفسيّة أو إجتماعية أو اقتصادية ، وقد يرجع انحراف الشخصية الجنسي إلى ضروب الإحباط والصراع التي تعانيها الشخصيّة في مراحل نموّها ، حيث يكون الانحراف الجنسيّ تعويضاً للشعور بالنقص والرفض الوالديّ والإحباط المزمن ، ويكون سلوكاً عدوانياً موجّهاً إلى قيم المجتمع وفئاته .

(١) الزنا ومكافحته : عمر رضا كحّالة ، ص ٥ .

ـ الدوافع النفسية :

إن انكمـــاش الصلـــة الـــوجـــدانيـــة بيـــن الشخصيـــة والوالدين ، أمر صعب على الشخصيّة لا يمكنها تحمّله فانعدام الجوّ العاطفي ، وسيطرة أسلوب القسوة والعنف والرفض ، والإهمال التربويّ ، والتفكّك الأسريّ للروابط الطبيعيّة كثيراً ما يؤذي هذا الرفض الفاحش مفهوم الشخصية حول ذاتها ويشعرها بالقصور والضّعة ، فتسعىٰ جاهدة للبحث عن قيمة الذات المفقودة في جوّ خارج جوّ الأسرة ، وتبحث عن البديل الذي يعيد لها ما ضاع في البيت من حبّ ودفء واحترام .

ـ الدوافع الاجتماعية :

إن سوء التنظيم الإجتماعيّ في المجتمع يشكّل عنصراً حاسماً في إبراز معالم الانحراف الأخلاقيّ لدىٰ الشخصية وكذلك الحال بالنسبة للفوارق في الأوضاع الاجتماعيَّة والأسس الثقافية الرائجة في المجتمع والمؤثّرات السلبية كانهيار القيم ، وسيادة الثقافة اللاأخلاقية ، والجهل ، ونقص التهذيب الأخلاقيّ ، وفساد المعايير الاجتماعية السـائـدة وضعـف دور الأسـرة التـربـويّ ، وفسـاد البيئـة

الاجتماعية المباشرة كالحيّ والجيران والأقران .

ـ الدوافع الاقتصادية :

قد تبلغ الشخصية سنّ الرّشد ، وتبحث عبثاً عن مهنة شريفة ترتزق منها ، وتوفّر لنفسها مالاً يسدّ حاجاتها الضرورية ، فيبدأ الحقد من قبل الشخصيّة على المجتمع الذي تعيش فيه لأنّه لم يوفر لها مطالبها وفق القانون السليم . فتشدها مسامير التمزّق والتوتّر من رأسها إلى قدميها ويكاد الإحباط والحرمان والحاجة يفجّرانها ، ولا تهدأ ثورتها بغير الاعتداء على القيم والتقاليد وتجترىء بقسوة على مجموعة النظم الأخلاقية .

أما بالنسبة للجنوح الجنسيّ عند المرأة فقد دلّت الإحصائيات أن السبب الأساسيّ في ميلها إلى هذه الرذيلة هو ضغط الحاجة الاقتصادية .

[فقد برهنت (بارنت دوشاتليه) أن السبب المباشر لانتشار البغاء في باريس وفي معظم المدن الكبيرة هو البطالة ، أو قلّة الأجور ، وهذا هو الملاحظ في انكلترا وألمانيا وأمريكا .

وقد دلّت أبحاثٌ في ألمانيا أن قليلات منهنّ يعترفن

بأنّ الفقر هو الدّافع بهنّ إلى حياة البغاء ، ولعلّ هذا يبدو طبيعياً لأنّ الغالبية العظمىٰ من البغايا يخرجن من الطبقتين العامة أو السفلىٰ ، حيث تقسو الحياة ، ويشتدّ الكفاح من أجلها ، وقد ذكر (سانجر) في كتابه الجامع لتاريخ البغاء ، أنه من بين ألفي بغي اعترفت ٥٢٥ منهنّ بأنّ العوز والفاقة هما السبب في احترافهنّ البغاء][١] .

وقد أثبتت الكاتبة نجية إسحق هذه الحقيقة في كتابها سيكولوجية البغاء حيث تقول :

[إن معظم البغايا يأتين من أسر فقيرة ذات مكانة اقتصادية منخفضة ، فالبغاء وسيلة للكسب ، تلجأ إليها المرأة للحصول علىٰ ضرورياتها ، إن كانت لا تمتلك وسيلة أخرىٰ للإرتزاق أو للحصول علىٰ بعض الكماليات إن كان لها مورداً آخر تقتات منه ، إذ أن البغاء طريق للكسب لا يحتاج إلى رأس مال أو تعليم أو تدريب .

وتؤكد هذا الاتجاه (سيمون ديبفوار) حيث تشير إلى أنّ الأسباب الحقيقيّة للبغاء ترجع إلى أننا في عالم ينتشر فيه البؤس والفقر والبطالة ، مما يدفع بعض الإناث إلى الدخول

(١)الزنا ومكافحته: عمر رضا كحّالة، ص ٢٤٢ .

في مهن مفتوحة لا تحتاج إلىٰ قدرات معيّنة مثل مهنة البغاء ، ثم تضيف موضحة أن البغي ليس بوسعها أن تتكسب عيشها بطريقة أخرىٰ ، ذلك أن المجتمع جعل من مهنة البغاء أشدّ المهن سهولة ، وأكثرها ربحاً ، إذ أن ما تحققه البغي من كسب عن طريق البغاء يزيد بكثير بالمقارنة بأي عمل آخر ، ولا عجب إذن أن نجد نسبة كبيرة من البغايا من خادمات المنازل لتفضيلهنّ البغاء على الخدمة المنزلية][1] .

وقد تطرّقت الآية الكريمة رقم ٣٣ من سورة النور إلى هذا الدافع وذلك بتطهير المجتمع من هذا الوباء السرطاني ، وعدم فسح المجال لمثل هذه الانتهاكات لتمارس على أرض الواقع الاجتماعي .

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وءاتوهم من مال الله الذي أتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور

---

(١)سيكولوجية البغاء.. دراسة نظرية وميدانية: نجية إسحق، ص ٤١ .

رحيم ﴾[1] .

الزّنا في الشّريعة والقانون :

تختلف جريمة الزنا في الشريعة الإسلامية عنها في القوانين الوضعيّة ، فالشريعة الإسلاميّة تعدُّ كلّ وطء محرّم زنا ، وتعاقب عليه سواء حدث من متزوّج أو غير متزوّج ، أما القوانين الموضعية فلا تعدّ كلّ وطء محرم زنا ، وأغلبها يعاقب بصفة خاصة علىٰ الزّنا والحاصل من الزوجين فقط ، كالقانون المصري والقانون الفرنسي ، ولا تعدّ ما عدا ذلك زنا وإنّما تعدّه وقاعاً أو هتك عرض .

وتعاقب الشّريعة الإسلامية علىٰ الزنا باعتباره ماسّاً بكيان الجماعة وسلامتها ، إذ أنّه اعتداء شديد علىٰ نظام الأسرة ، والأسرة هي الأساس الذي تقوم عليه الجماعة ، ولأنّ في إباحة الزنا إشاعة للفاحشة وهذا يؤدي إلىٰ هدم الأسرة ثم إلىٰ فساد المجتمع وانحلاله ، والشريعة تحرص أشدّ الحرص على بقاء الجماعة متماسكة قويّة .

أما العقوبة في القوانين الوضعية فأساسها أنّ الزّنا من الأمور الشخصيّة التي تمسّ علاقات الأفراد ، ولا تمسّ

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

صالح الجماعة ، فلا معنى للعقوبة عليه ما دام عن تراض ، إلاّ إذا كان أحد الطرفين زوجاً ففي هذه الحالة يعاقب علىٰ الفعل صيانة لحرمة الزوجيّة[1] .

وقد شدّد الإسلام علىٰ جريمة الزنا ، وقرنها مع جريمة قتل النفس والشّرك بالله قال تعالىٰ : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاَّ بالحقّ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً * إلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

وحرصاً من الإسلام على صيانة شرف المرأة وكرامة الرّجل منع خلو الرجل بالمرأة الأجنبيّة . قال رسول الله ﷺ :

« لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم » .

كما أمر بأن تخفي المرأة زينتها ولا تظهرها إلاَّ لمن يحلّ لها .

---

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي: عبد القادر عودة، ج ٢، ص ٣٤٦.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٦٨، ٦٩، ٧٠.

قال تعالىٰ :

﴿ وقل للمؤمنات يغضضنّ من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو . . . ﴾[1] .

[وكذلك حارب الإسلام الشذوذ الجنسيّ بشتى أنواعه ، كما حارب الفوضى الغريزية وطالب بالنهوض بالمرأة إلى أعلى المستويات ، فأرادها سعيدة كريمة جليلة ، تحافظ على عزّتها وكرامتها ، وتبقى كما أرادها ربُّ العالمين ، ربّة عائلة كريمة ومربّية جيل .

والمجتمع الذي يصاب بالفوضى الجنسيّة تستشري فيه الأمراض الزهريّة المهلكة التي تقضي علىٰ تماسك شخصيّته ، وترمي به إلى هاوية الموبقات والرذائل ، كما تهدّد الأسرة بأمواج من الآثام الطاغية المهلكة][2] .

لقد اتّسم التوجيه لدىٰ الشارع المقدّس بفرض

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) النظم الإسلامية: د. حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع: ص ٣٩١.

العقـوبـات إزاء ممـارسـة السلـوك الشـاذ مـن قبـل الـرجـل والمرأة ، وفاتحة سورة النّور تذكّر بكيفية الوقوف من الزنا . . والإتّهام غير المبني علىٰ العلم واليقين القاطع . . وسلوك العفّة والزواج .

كما بيّنت إرادة الشارع المقدّس في فرض النّظام علىٰ الفـوضـىٰ ، ليكـون جمـال الحيـاة نظيفـاً ، ولتبلـغ التـربيـة بالإنسان مبلغاً طاهراً نقيّاً ، وهي تنظيمات دقيقة استدعتها وفرضتها وقائع بذاتها ، فهي تعبّر عن مدلول المعالجات الحكيمة للوقائع الشاذة التي يعيشها المجتمع . كنوع من العـلاج فـوق الطبيعـي لفـرض النظـام علـىٰ الفـوضـى ، وبالخصوص علائق الرجال بالنساء ، وفرز السويّ منها عن الشاذ وفق الحدود الشرعيّة التي أسهبت الآيات في سورة النور وبيّنها بشكل دقيق للغاية وهي : الزّنا ، الزواج من الباغية ، اتّهام المرأة العفيفة ، اتّهام الزوجة ، حديث الإفك ، الدخول إلى البيوت ، غضّ الطرف وحفظ العفّة ، عدم إظهار الزينة إلاّ في ما يباح ، تنظيم العزوبيّة ، منع البغاء .

ففي الوقت الذي تعدّ القوانين أن الزّنى من الأمور الشخصيَّة التي لا تمتُّ إلى الجماعة بصلة ، فتستهين بالنتائج

المترتبة عليها تعدّه القوانين الإلهية في الوقت ذاته ماساً بصالح الجماعة ، ومرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات العامة ونتيجة لذلك أنزلت العقوبات الصارمة على من يقترف هذه الخطيئة بل وعدّتها من قائمة المنكرات ووضعتها في أوائل سلم المحرّمات .

جاء في الحديث الشريف :

« احذر سكر الخطيئة ، فإنّ للخطيئة سكراً كسكر الشراب بل هي أشدّ سكراً منه » يقول الله تعالىٰ :

﴿ صمٌّ * بكمٌ * عميٌ فهم لا يرجعون ﴾[1] .

ولقد وضعت جريمة الزّنا في أساسيات الكبائر واقترنت جريمة الزّنا بالشرك بالله سبحانه وتعالىٰ وقتل النفس التي حرّم الله .

« عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنوب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك ، قال : قلت : ثم أيّ ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت ، ثم أيّ ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تصديقاً : ﴿ والذين لا يدعون

---

(١) ميزان الحكمة : ج ٣ ، ص ٤٤٨ .

مع الله إله آخر * ولا يقتلون النّفس التي حرّم . . . ﴾[1] .

* * *

قال تعالىٰ : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بها رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . . ﴾ .

إن لتطبيق الأحكام وفق الحدود الشرعيّة فلسفة بعيدة المدىٰ والحقيقة التي لا تقبل الجدل في أن الإنسان لا يجاهر بخطئه مهما كانت قسوته ونسبته ، وغالباً ما تقترف الجرائم بعيداً عن الأعين ، وأشدّ ما يزعج المرء أن الآخرين يشعرون بخطئه الفادح بل ويجلد ويضرب أمامهم ، فبقدر ما يكون المرء مسروراً ومغتبطاً في مواطن الرفعة في الوسط الاجتماعي ، بقدر ما يكون كارهاً لنفسه ونادماً على ما قدّم في مواطن السقوط والضّعة في الوسط الاجتماعي كذلك .

فكما يُعذّب الزاني جسدياً من جرّاء الضرب على جسده كلّه ، يتعذّب نفسياً لافتضاح أمره ، وجلده أمام أعين النّاس وهي مواطن ـ لا يحسد عليها ـ من الضعة والألم .

---

(١) ميزان الحكمة : ج ٣، ص ٤٥٢ .

وفلسفة الجلد في غير المحصن ، والرّجم في المحصن ، تأتي تباعاً لعلم الشارع المقدّس بأن الثاني اختار الحرام ، وترك الحلال على الرغم من وجوده .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

« ليس في البدن شيء أقل شكراً من العين ، فلا تعطوها سؤلها ، فتشغلكم عن ذكر الله ، ثم قال : لكم أول نظرة إلىٰ المرأة ، فلا تتبعوها بنظرة أخرىٰ ، واحذروا الفتنة ، إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه فليأت أهله ، فإن عند أهله مثل ما رأى »[1] .

. . فالثاني على خلاف الأول الذي لا يملك الحلال ، وسارع إلى الحرام ، علىٰ العلم أن لكلّ امرىء عقابه ولا يحسد الاثنان على موقعهما من العقاب ، فإن للأول فرصة أخرىٰ للبحث عن الحلال ، أما الثاني فلا فرصة أمامه غير التوبة قبل الرجم .

إن الجزم في الأسلوب القراني للآية المباركة صريح بعدم وجود العاطفة والتهاون في تنفيذ الحكم الشرعيّ ، حفاظاً على المجتمع الفاضل والحكومة الإسلامية من تفشي

---

(١) نور الثقلين : ص ٥٨٩ .

هذه الأمراض السرطانية الخطيرة .

بل إنه في موطن آخر من السورة ، يذم هذا السلوك غير السوي ويقبّحه ، ويقرنه بصفة الشرك بالله سبحانه وتعالىٰ تعظيماً لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، فقد وُضع في قائمة المحرّمات في القانون الإسلامي لما يجرّ من تبعات سيّئة حاليّة ومستقبليّة على الجيل الحالي والقادم .

قال تعالىٰ :

﴿ الزّاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة * والزّانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين ﴾[1] .

إن الرعاية الدقيقة في تنظيم الغرائز الإنسانية ضروريٌ للغاية ، من أجل أن تحقق هذه الغريزة أهدافها التي أُوجدت لأجلها ، لأنّ الفوضى لا تنتج حياة سليمة مستقرة فإذا انطلق كلّ فرد في ممارسة ما يحبّ ، فإن ذلك سيؤدي لا محالة إلى تصادم الرغبات والميول غير الطبيعية واللاقانونية ، مما يؤدي إلى اختلال قانون الحياة ، واضطراب ميزان العلاقات .

فلذا شرع القانون الإسلامي هذه الحدود ضماناً لسلامة

---

(١)سورة النور، الآية: ٣.

الأمّة وتطهيراً للمجتمع من هذه الممارسات اللاسوية .

ـ المجتمع والعفّة الجنسية :

أراد أحد الملوك أن يجرّب واقع مملكته ، فأرسل ابنته وكانت في غاية الجمال ، أنزلها مع امرأة فقيرة وأمرها أن لا تمنع أحداً إن أراد التعرّض لها بأي شيء ثم أمرها بكشف وجهها ، وأن تطوف بها في الأسواق ، فامتثلت لقوله ، فما مرّت بها على أحد إلاّ وأطرق رأسه عنها حياءً وخجلاً ، فلما طافت بها المدينة كلّها ولم يمدّ أحد نظره إليها حتى قربت بها من دار الملك تريد الدخول بها ، فأمسكها إنسان وقبّلها ، ثم ذهبت فأدخلتها على الملك ، فسألها عمّا وقع . . فذكرت له القصة فسجد لله شكراً وقال الحمد لله ما وقع مني في عمري قطّ إلا قبلة لامرأة وقد قوصصت بها .

إن المربين والمصلحين يسعون جاهدين لبناء المجتمع الفاضل الذي يرتكز على مقومات الخير والفضيلة وصياغة الشخصية الآدمية ضمن قوالب السلوك السويّ والفكر السليم في تكوين علاقة سليمة بين الشخصية وبين ضغوط الحاجة الجنسيّة لديها ، وتربية الشخصية التربية السويّة ضماناً لاستقامتها دون الميل إلى الانحراف ، فهي تلعب ـ أي التربية ـ دوراً بارزاً في تهذيب التعبير السلوكيّ للدافع

الجنسي لدىٰ الشخصية ، بقدر ما يسمح به نمو الشخصية جسميّاً وعقلياً واجتماعيّاً وسيكولوجياً ، وفي إطار التعاليم الدينية والمعايير الإجتماعية والنظم الأخلاقية السائدة في المجتمع ، لإعداد الشخصيَّة إعداداً سليماً تستطيع معه التوافق في المواقف ومواجهة شتّى أنواع الضغوط عليها مواجهة واقعيّة تؤدي بها إلى الصحة النفسيّة .

وما يثير الدهشة أن أقلام الكثيرين من العلماء والمتخصصين يسلّطون الضوء على المطالبة بتعريف الطفل بالقضايا الجنسية واطلاعه عليها في عمره الباكر .

[فهذا اليهودي الألماني (يواخيم دويش) أصدر مجلة اسمها (سانكت باولي تسايتونج) في همبورغ ، لسان حال حزب سياسي جديد هو حزب الجنس ، وشعار هذا الحزب هو المطالبة بالحرية الجنسية للمجتمع ، وتدريس العملية الجنسيّة للأولاد والبنات عملياً وعلىٰ الطبيعة في سنّ التاسعة ، وإباحة الزواج المشاعي (وهو أن يتزوج جماعة من الرجال بجماعة من النساء يتبادلون الزوجات فيما بينهم) وإباحة زواج الرجل الشاذ بالرجل الشاذ (على غرار ما أقره البرلمان الانجليزي مؤخّراً في إباحة اللواط) وزواج المرأة الشّاذة بالمرأة الشّاذة والنظر إلى الخيانة الزوجية على أنها

الأمر العادي والطبيعي والمأمون ، ودستور الحزب يهدف إلى جعل حبوب منع الحمل والإجهاض حقوقاً مشروعة والحل السياسي لأزمة العالم في نظر الحزب هو الحب بدل الحرب . . أي الحب الجنسي على طريقة الحيوانات][1] .

وإنّنا نرىٰ في هذا المطلب . . خطأً مبالغاً فيه ، إذ أن الطفل لا يستوعب الهدف الذي يشير إليه العلماء ، والغاية المقصودة وراء هذا المطلب ، وإنما ستكون النتائج مخيّبة للآمال ، لأنّ الطفل سيؤدي الدور نفسه الذي شاهده ، ليمارسه بتلقائيته عاجلاً أم آجلاً ، دون أن يميّز بعقليته المحدودة ، الآثار السيّئة التي ستنتج عن صنعه هذا ، ولجهله بأخطار هذا الوباء السّرطاني الذي أثار غريزته الخامدة وهو لا يزال حديث السنّ ، وما سيؤول إليه أمره في النهاية من التدمير الشامل للنظم الأخلاقية والقوانين الاجتماعية .

والمحصلة . . إن العلاج الذي ارتآه بعض السذّج من العلماء ، علاجٌ مساوئه أفقم من محاسنه ، وهو إلى الهاوية أقرب منه إلى النجاة، فالبحث الصّريح مع الأبناء حول هذا الأمر في عمرهم الباكر، لهو اقتطاف للثمرة قبل

---

(١) الشيطان يحكم: مصطفى محمود، ص ٨٥.

نضوجها ، ومن ثم الحكم عليها بالتلف والفساد .

فالغريزة تكون خامدة داخل النفس ، وهي بحاجة إلىٰ شرارة لإشعالها وثورانها، فالإثارة لها أمرٌ مفسد للمطالب التربويّة التي يسعىٰ المربون والأولياء للوصول إليها .

وأهم مسألة يجب أن لا يغفل عنها المربي هي نضوج الطفل جسدياً وهو يحمل معه الحصانة والعفاف الجنسيّ ليتمكّن من مواجهة أي حادث يعترض طريق سيره في الحياة .

فإسهاب الأحاديث الشريفة حول هذا الموضوع ، تعطيه أهمية بالغة لما يترتب عليه من آثار وانعكاسات مستقبلية خطيرة ، فامتطت أسلوب التحفّظ والحرص الشديدين بغية ضبط هذا الدافع الغريزي وعدم إثارته حتى في السنوات الباكرة من عمر الشخصية .

قال رسول الله ﷺ :

« والذي نفسي بيده لو أن رجلاً غشي امرأته ، وفي البيت صبي مستيقظ يراهما ويسمع كلامهما ونفسهما ، ما أفلح أبداً ، إن كان غلاماً كان زانياً

أو جارية كانت زانية »[1] .

وعن الإمام الصادق عليه السلام :

« لا يجامع الرجل امرأته ولا جاريته وفي البيت صبي ، فإن ذلك مما يورث الزّنا »[2] .

وفي المراحل الثانية من عمر الشخصية .. تابعت التوجيهات الإسلاميّة طريقها ، وبيّنت خطورة التساهل والتهاون في بروز هذه الغريزة ومحاولة إثارتها لما لها من آثار مستقبليّة خطيرة على الفرد والمجتمع .

جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« إذا بلغت الجارية ست سنين فلا تقبّلها ، والغلام لا تقبله المرأة إذا جاوز سبع سنين »[3] .

فمجـرّد التقبيل قد يثير شيئاً لدى الغريزة ، أو يحرّكها ، فالعلاج الوقائيّ هو تجنّب المنبهات والمهيّجات كافة حرصاً على التكامل البيولوجي والأخلاقي لدى الشخصية .

---

(١) الوسائل : ج ١٤ ، ص ٩٤ .
(٢) الوسائل : ج ١٤ ، ص ٩٤ .
(٣) مكارم الأخلاق ، ص ٢٢٣ .

فيكفي تتبّع هذه التوجيهات ، وأخذها بعين الاعتبار ، من أجل المحاولة الفعلية للالتزام بها حرفياً وعدم الشذوذ عنها . فبدل تطلع الطفل بفضوليته وتلقائيته على هذا الأمر أو سرد ذلك عليه من قبل أقرانه وزملائه دون النظر إلى الوقت الجيّد للإعلان عن تلك الغريزة ، وعدم اختيار الظروف المناسبة لدليل واضح على تفاقم المشكلة بدل حلّها ، فلذا يجب على الأولياء والمربّين إيجاد حلول عمليّة سليمة تضمن استقامة الأبناء وعدم ميلهم إلى طريق الانحراف .

ويكون ذلك : بالثقافة الأخلاقية ، والتوجيهات التربويّة والرّعاية المركزة وفق الحياة الهادئة التي يعيش في وسطها ، وتشجيعه علىٰ تأدية الأدوار الخيّرة ، وحبّ الآخرين ، والتسامح والعفو والسلوك السويّ ، والالتزام بالجانب الأخلاقي في التعامل ، فهذه كلّها بمثابة موانع طبيعية .

فالتهذيب الأخلاقي ، والتربية الفاضلة ، والمرافقة التوجيهيّة ، أسلوب وقائي لاعتدال السلوك وقوامه ، أما إذا أُثيرت غريزته ، واستجاب لها ، فإنّه يستحق العقاب زجراً له دون الإعادة ، واستخدام أسلوب العنف لردعه ، ربما يراه

الحاكم الشرعي من مصلحة جاء في الحديث :

« سألت أبا عبد الله عليه السلام : عن غلام لم يبلغ الحُلم ، وقع على امرأة ، قال عليه السلام : يضرب الغلام دون الحدّ ، قلت : جارية لم تبلغ .. قال عليه السلام : تضرب الجارية دون الحد »[1] .

.. فالشخصية السويّة قادرة علىٰ تجاوز ضغط الشهوة وإلحاحها ، ومظاهر الإغراء ، وشتى أنواع الانحراف ، بالتسلّح بالروح الإيمانيّة ، والإرادة القاهرة في مختلف مراحل النمو .

---

(١) وسائل الشيعة : باب ٩ .

الفصل السادس
الشخصيّة .. والانحراف الاقتصادي

إن الشخصيّة مجبولة علىٰ الحركة والهمّة ، ومبنية علىٰ حبّ العمل وممارسته ، وهذا من طبيعة الكائن الآدميّ ، فلو توقف الجانب الجسدي عن العمل فإن الجانب الفكريّ لدىٰ الشخصيّة مشغول بتفسير الأشياء وتحليلها وربطها وتبويبها .

فوجّه الشارع المقدّس الشخصيّة صوب العمل والكدح ، وحثّها على امتلاك الهمّة والعزيمة .

قال تعالىٰ : ﴿ وقل اعملوا فسيرىٰ الله عملكم ورسوله

والمؤمنون . . . ﴾[1] .

﴿ . . . فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[2] .

﴿ إن الإنسان لفي خسر * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[3] .

كما دعت قافلة من الأحاديث إلى حثّ الشخصية على الكدّ والعمل والنهي عن الكسل ، وذمّت بدورها كلّ من يضع كلّه على الآخرين ، ويأكل ويشرب ويستهلك دون أن يقدّم أدنى عمل .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام :

« إياك وخصلتين : الضجر والكسل ، فإنك إن ضجرت لم تصبر علىٰ حق ، وإن كسلت لم تؤدّ حقاً ، يا عليّ من استولىٰ عليه الضّجر رحلت عنه الرّاحة »[4] .

وعن الباقر عليه السلام قال :

(1) سورة التوبة، الآية: ١٠٥ .
(2) سورة الكهف، الآية: ١١٠ .
(3) سورة العصر، الآيات: ٢ ـ ٣ .
(4) الوسائل: ج ١١، ص ٣٢٠ .

« إني لأجدني أمقتُ الرجل يتعذّر عليه المكاسب ، فيستلقي على قفاه ويقول : (اللهم ارزقني) ويدع أن ينتشر في الأرض ، ويلتمس من فضل الله ، والذرّة (أي النمل) تخرج من حجرها تلتمس الرزق »[1] .

وعن الصادق عليه السلام قال :

« لا تكسلوا في طلب معايشكم فإن آباءنا ، قد كانوا يركضون فيها ، ويطلبونها »[2] .

وعن الكاظم عليه السلام قال :

« إن الله تعالىٰ ليبغض العبد النوّام ، إن الله تعالىٰ ليبغض العبد الفارغ (العاطل)»[3] .

.. إن قانون التشريع الإلهي : حثّ الشخصيّة على العمل والحركة ، ونهىٰ عن الكسل والضّجر ، شريطة أن يكون العمل مفيداً ومباحاً ، وكما حثّها على العمل ، أقرّ لها كذلك مبدأ التنافس ضمن ضوابط واضحة ، وحرّية اقتصاديّة معقولة ، لتنطلق إمكاناتها ومواهبها في مجال النمو والتقدّم

---

(١) من لا يحضره الفقيه : ج ٣، ص ٩٥ .
(٢) من لا يحضره الفقيه : ج ٣، ص ٩٥ .
(٣) من لا يحضره الفقيه : ج ٣، ص ١٠٣

وشريطة أن لا يتضارب ذلك مع حقوق الآخرين ، وعدم الاعتداء على أمنهم وراحتهم وعقيدتهم و . . و . .

فالحريّة الإقتصادية التي أباحها القانون التشريعيّ الإلهيّ للشخصية هي الحرّية : في المسكن والمعمل ، والحريّة في كلّ مجالات الحياة ومرافقها ، شريطة أن تقنن ضمن حدود النظم الأخلاقيّة ، والقيم الإسلاميّة ، والتي بدورها تضمن للشخصيّة السعادة والأمان والرّفاه .

الشخصية محوران : ماديّ ومعنويّ

إن التوازن الوسطي بين المحور المعنويّ والمتمثّل في العبادة والتقوىٰ ، وبين المحور الماديّ والذي يتمثل بدوره في الاستفادة من النّعم ، والتمتّع بالخيرات والتلذّذ بها ، وهي الحالة الوسطىٰ التي تنسجم مع طبيعة الكينونة الإنسانيّة ، وتتطلبه حقيقة الفطرة البشريّة ، لا تنفكّ أو تنفصل عن نظرة القانون التشريعيّ إلى هذين المحورين . وضرورة التوافق والتكامل بينهما . فالآيات القرآنيّة بعضها ما يذمّ الدّنيا ، والبعض الآخر ما يمدحها ، والقسم الأخير يجمع بين الدنيا والآخرة .

تقول الآيات :

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[1] .

﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدّنيا خالصة يوم القيامة . . . ﴾[2] .

أمّا النوع الثاني من الآيات التي تذمّ الدنيا وعدم الاعتبار بها :

يقول تعالىٰ :

﴿ . . . وما الحياة الدُّنيا إلاَّ متاع الغرور ﴾[3] .

﴿ وما الحياة الدّنيا إلاّ لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾[4] .

أمّـا النـوع الثـالـث الـذي جمـع بيـن الاعتبـار بـالـدنيـا والآخرة والأخذ بهما :

يقول تعالىٰ :

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥ .

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥ .

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

﴿ وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدّنيا . . . ﴾[1] .

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة. . . ﴾[2] .

وبهذا يكون قانون التشريع الإلهي ، قد أكمل حاجات الإنسان على الصعيدين : الماديّ والمعنويّ ، فكما أرفق المناهج الأخلاقيّة والتربويّة لسلامة البنية الآدمية ، كذلك أرفق نظاماً اقتصادياً دقيقاً ، لما لهذا المحور ـ الماديّ ـ من آثار بالغة الخطورة على واقع الفرد والمجتمع ، بل على الحياة برمّتها . فالخلل الماديّ يوجب الانحراف لدى الشخصيّة ، وكذا ضغط الحاجة يجبر الشخصيّة على امتطاء أساليب المكر والغشّ والخداع دون أدنى شك .

* * *

أسباب الانحراف الاقتصادي :

أولاً ـ ضمور الحسّ الديني :

عندما تتزعزع العقيدة ، وتنحسر العلاقة مع الله

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

سبحانه وتعالىٰ ، فإنّ ذلك سبيلٌ مؤدّي إلىٰ الانحراف الاقتصاديّ ، فالشخصيّة المرضية تسلك الطريق المعوّج لبلوغ أهدافها ، ونيل مطامعها ومكاسبها اللامشروعة والتي غالباً ما تبنىٰ علىٰ البخس والنفاق والكذب .

ففي سورة الأعراف وبخاصة الآيات الكريمة الواقعة بين الآية رقم ٨٥ إلى الآية رقم ٨٦ ، تتحدث عن حالة الصراع الدائر بين نبي الله شعيب عليه السلام وبين أبناء قومه ، حين انحرفوا عن جادّة الطريق ، بالميل عن طاعة الله سبحانه وتعالىٰ ، وشذوذهم عن معرفة نور العقيدة ، فسلكوا طريق الفساد في المجتمع وذلك بالبخس في الميزان والغش في العين المباعة ، وملاحقة المؤمنين في محاولة منهم لحرفهم وصدّهم عن سبيل الله .

يقول تعالىٰ :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بيّنة من ربّكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدّون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم وانظروا كيف كان عاقبة

المفسدين ﴾[1] .

إن الحقيقة الواضحة في انحراف قوم شعيب عليه السلام في مفهوم الآية ، وتلاعبهم بالأسعار واستخدامهم أساليب الغشّ والمكر في التعامل التجاريّ القائم علىٰ البيع والشراء تكمن في ضعف علاقتهم مع الله سبحانه وتعالىٰ ، وعدم وجود الصّلة المترابطة بينهم وبينه جلّ وعلا .

فانحراف قوم شعيب لم يكن لضغط الحاجة وعصرها ، أو لسوء الأحوال المعيشيّة كما هو الغالب ، فالآية الكريمة رقم ٨٤ من سورة هود تبيّن هذا الأمر بوضوح ، حيث يقول شعيب عليه السلام على لسان الآيات :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإنّي أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ .

إن الدعوة الصريحة التي أطلقها شعيب عليه السلام لقومه هي : توحيد الله وعبادته وحده دون سواه ، ورفض كل العبوديات القائمة بشريّة كانت أم صنميّة ، والتنحّي عن ممارسة أيّ سلوك يؤدّي إلى الفساد الاقتصادي بأشكاله

---

(١)سورة الأعراف، الآيات: ٨٥، ٨٦.

وأنواعه كافة ، وسواء كان ذلك لضغط الحاجة أو لعدمها .

ونافلة القول : أن ضمور الحسّ الديني عند الشخصيّة ، وضعف العلاقة بينها وبين الله سبحانه وتعالىٰ كفيلٌ بميلها عن طريق الحقّ ، وبالتالي ضياعها في دائرة الإنحراف ، ليس في المجال الاقتصادي فقط ، وإنما في مختلف المجالات الحياتية الأخرىٰ . فالشخصيّة البعيدة عن الله سبحانه وتعالىٰ تتقوقع حول ذاتها ، ولا تخرج عن حدود الأنا ، ولا تقنن نشاطاتها وإمكانياتها إلا لبلوغ أهدافها الخاصّة بها ، ولا تفكّر في نتائج سلوكها الشاذ وعواقبه الوخيمة على المجتمع وقيمه وقوانينه ، ولا يهمها أيّ أمر آخر ، ما دام لا يتعلق والحال هذه مع مصالحها ومطالبها .

* * *

ثانياً ـ غياب العدالة الاجتماعية :

إن العدل في الحقل الاجتماعيّ والاقتصاديّ هو الهدف الأسمىٰ في قانون التشريع الإلهي ، وهو الضابط الفعليّ علىٰ كلّ التعاليم والقوانين والأنظمة .

فالحقوق الاجتماعية بين أبناء المجتمع المسلم محفوظة ومصانة ، إذ لا فرق بين فئة وأخرىٰ ، ولا فضل

لطبقة على طبقة ، بل أن القانون التشريعيّ يضمن الحقوق كافة لأبناء المجتمع دون تمييز ، فالثروات الطبيعية ، ومقدرات المجتمع ، ترجع عوائدها ومكاسبها إلى عامة أبناء المجتمع ، دون تخصيص هذه الثروات طبقة الأغنياء دون غيرهم ، تقول الآية الشريفة في سورة الحشر :

﴿ . . . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . . . ﴾[1] .

فالموارد الطبيعيّة ليست محصورة علىٰ فئة دون أخرىٰ ، وإنما يُتاح للجميع فرص الاستثمار والنماء المالي شريطة أن لا يخلّ ذلك بحقوق الآخرين ، أو يضرّ بالمصلحة العامة للمجتمع . فالأغنياء والفقراء ، الكلّ سواء أمام قانون التشريع الإلهي .

فالشخصيّة الآدمية التي تحصل علىٰ حقوقها كاملة كما يحصل عليها الآخرون ، وتنمو في المجتمع نموّاً طبيعياً دون وجود حالة من التمايز والتفاضل بينها وبين بقية أفراد المجتمع . فالكل سواء في الحصول علىٰ موارد الكسب ، وإتاحة فرص العمل ، وامتلاك الحرية في نماء الملك الخاص وتطويره بالطرق المشروعة ، وفتح باب التنافس بين

---

(١) سورة الحشر، الآية : ٧.

الأفـراد وفـق القـوانيـن الضـابطـة للنظـام الاقتصـادي ، كـلّ هذا . . يولد لدىٰ الشخصية الشعور بالأمن والاستقرار والذي يعقبه بشكل تلقائي سلامة البناء النفسي والسلوكي لديها .

إذن . . الكل سواء أمام القانون ، ولا تمايز بين فرد على فرد أو فئة دون أخرىٰ ، وإنما التفاضل الوحيد الذي أقره قانون التشريع الإلهي هو : قانون التفاضل بالسعي والعلم ، والخبرة والإمكانيّة ، ونبذ أشكال التفاضل غير العـادلـة المبنيّـة علـى أسـاس العنصـر واللـون والمنصـب والعلاقة .

إن الشخصيّـة الآدميّـة التـي تمتلـك قـدراً وافـراً مـن الإمكانات والمواهب ، حين تدرك بأن ثمرة جهدها وعملها لن تضيع ، فإنها ستكثّف عملها وتضاعف جهدها ، بل وتبذل كلّ ما في وسعها لتحقيق الفوز والتقدّم . أما حين ترىٰ بأن مبدأ التفاضل قائم على حساب المصالح الشخصية والمراتب الاجتماعية ، فإن رغبتها في التطوير والإبداع تذبل وتجمد في موقعها .

فالعدل في المحورين : الإقتصاديّ والإجتماعي ، يشجع الشخصية السويّة على اقتحام الصّعاب وبذل القدرات

والإمكانيات جميعها لتطوير البناء الشامخ للمجتمع بالعمل المتواصل والخبرة ، وفي الوقت ذاته تحاول الشخصية المرضيّة الوقوف علىٰ قدميها ، والانصياع قهراً للعمل والكسب فبدون ذلك لن تحصل علىٰ ما تريد، ولن تجدي نفعاً أساليبها الإلتوائيّة في حصولها على المال، غير الخضوع القسريّ للتعامل مع القانون العام الذي يسود المجتمع ، فتنزل بدورها إلى ساحة المجتمع وتشمّر عن سواعدها، وتتعب وتكدح حالها حال الآخرين في المجتمع .

فسيادة قانون العدالة . . يشعر الجميع بالراحة والاستقرار لاطمئنانهم علىٰ مستقبل رزقهم وثمرة جهدهم ، ويدفعهم ذلك لمضاعفة الجهد ، ومواصلة المزيد من البذل والعمل ، كلٌّ علىٰ حسب استطاعته وإمكاناته ، وإلاّ كان العكس بالعكس .

فقد قال الإمام علي عليه السلام في عهده المعروف لمالك الأشتر النخعي :

« ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل

الإساءة على الإساءة »[1] .

ثالثاً ـ إنعدام العامل الأخلاقي والإنساني :

إن امتثال الشخصيّة الآدمية بالسلوك الأخلاقي في كلّ المجالات الحياتيّة يُعدّ درعاً واقياً لها من الميل نحو الإنحراف ، فالأخلاقي أصل متجذّر في قانون التشريع الإلهي ، وهو حصن واقٍ من التخبّط والهذيان في المجال الاقتصاديّ ، فالاكتناز أو الاحتكار ، أو التبذير . . جميعها أمور غير طبيعية ، تجر أضرارها بالمصلحة العامة وبالخصوص الطبقة المحرومة : طبقة الفقراء والمعوزين والبؤساء ، وهي أمورٌ تتنافى مع قانون النظم الأخلاقية والقيم الدينيّة . يقول تعالىٰ في حق الاكتناز في سورة التوبة :

﴿ . . . والذين يكنزون الذّهب ، والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم ﴾[2] .

وقال تعالىٰ في حقّ الإسراف والتبذير :

﴿ . . . وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحبّ

---

(١) نهج البلاغة : باب الكتب ، كتاب رقم ٥٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

المسرفين ﴾[1] .

﴿ . . . ولا تبذّر تبذيراً * إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين . . . ﴾[2] .

وفي حق الاحتكار قال الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر واليه في مصر :

(واعلم مع ذلك ، أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحّاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البياعات ، وذلك باب مضرّة للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين ، من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إيّاه ، فنكّل به وعاقبه في غير إسراف)[3] .

إن الاكتناز والاحتكار وظواهر الإسراف الخارج عن حدود المألوف تؤدي إلى استنزاف الطّاقات وهدر الإمكانات ، وتضييع حقوق الآخرين ، كما تؤدي إلى ظهور الطبقيّة والفئويّة في المجتمع .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) سورة الإسراء، الآيات: ٢٦، ٢٧.
(٣) نهج البلاغة: كتاب رقم ٥٣.

ومن أجل حماية المجتمع من بروز هذه الظواهر المرضيّة في المجال الاقتصادي والاجتماعيّ ، كان حثّ القانون التشريعي موجّهاً صوب إغناء الفقراء ، بل ومحاربة الفقر إن وجد ، حتى يتساوى الكل في مستوىٰ الغنىٰ بشكل نسبي ، فلا فقر ولا حاجة ، ولا وجود لأيّ محتاج . فإذا أدرك الشخص الغني هذه الحقيقة انتفىٰ وجود الفقر . يقول الإمام عليه‌السلام : إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متّع به غني .

فالشخصية المقتدرة صاحبة الثروة والمال ، قادرة علىٰ النّظر في أمور الضّعفاء والفقراء في محاولة جادّة لإنعاش وضعهم المالي السّيء ، وتحسين أوضاعهم ، ومساعدتهم في القضايا التي هم عاجزون بالفعل عن القيام بها . فمثلاً الشّاب الفقير الذي أوشك علىٰ إكمال عامه الثلاثين دون أن يجد وظيفة شريفة تضمن له راحة البال ، واستقراره وتؤمن له احتياجاته ومتطلباته ، وهو إضافة إلىٰ ذلك ما برح شارد الذهن يفكّر في أمر الزواج الذي هو سُنة من سنن الحياة ، وكيف تستقر به الأمور ليفتح بيتاً ويحيا الحياة الكريمة التي يتمناها ، لم لا . . تنتشل الشخصية المتمكّنة والمقتدرة مالياً هذا الشاب المكافح ، وتسانده كي

يتغلب على واقعه الصّعب والسيّء .

إن الفقر معول حاد يجتث كرامة الإنسان ، ويستأصل ما يؤمن به من قيم ومبادىء عليا .

[وخطر الفقر أنه لا ينحصر داؤه في محيطه ، بل يتعدّاه إلى المجتمع كلّه فينخرم التوازن ويختل الأمن ، ويكون الاضطراب الاقتصاديّ والاجتماعيّ أسوأ الانعكاسات علىٰ مجرىٰ الحياة السياسيّة التي لا يقام في ظلّها نظام مستقر ، ولا حضارة مشعّة ، ولا مجتمع متطوّر ، ولا مخططات إنمائية تزدهر بها البلاد ، حتى تكون في مأمن من الهزّات والانتفاضات والانتكاسات المخرّبة ، التي كثيراً ما يكون الباعث عليها مآسي القهر والأنانيّة والاحتكار والاستغلال والتفاوت الطبقي الكبير الممزّق لكل الروابط والأواصر والمغذّي لمعاني السيادة والرق والترفّع والضّعة والسعادة والبؤس والرعاية والتشريد والغنى والحرمان][1] .

إن الشخصيّة الآدميّة التي تستقبل توجيهاتها ضمن قوالب الدّين والعقيدة ، تدرك حقيقة البُعد الأخلاقيّ

---

(١)الفقر والجريمة: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب: ص ٥٩ .

والإنساني في تعاملها مع الآخرين في المجتمع ، وبالخصوص فيما يتعلق بمساعدتهم وتقديم العون لهم ، بل حتى مراعاة نفسياتهم ، فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قال : للمعلاّ بن خنيس في الإجابة علىٰ سؤاله إياه . . ما حق المسلم علىٰ المسلم ؟

ـ قال : له سبعة حقوق وواجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب ، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ، ولم يكن لله فيه نصيب .

ـ قلت له : جعلت فداك . . وما هي ؟

ـ قال : يا معلاّ إنّي عليك شفيق أخاف أن تضيّع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل .

ـ قلت : لا قوة إلا بالله .

ـ قال : أيسر حق منها أن تُحبّ له ما تحبّ لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك .

والحق الثاني : أن تجتنب سخطه ، وتتّبع مرضاته ، وتطيع أمره .

والحق الثالث : أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك .

والحق الرابع : أن تكون عينه ودليله ومرآته .

والحق الخامس : أن لا تشبع ويجوع ، ولا تروىٰ ويظمأ ولا تلبس ويعرىٰ .

والحق السادس : أن يكون لك خادم ، وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه ، وتصنع طعامه ، وتمهّد فراشه .

والحق السابع : أن تبرّ قسمه ، وتجيب دعوته ، وتعود مريضه ، وتشهد جنازته وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ، ولا تلجئه إلى أن يسألكها ولا تبادره . . مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته ، وولايته بولايتك »[1] .

وفي الحديث الآخر : « من حقوق الجار على جاره :
إذا استغاثك أغثته .
وإذا استقرضك أقرضته .
وإذا افتقر عدت إليه .
وإن أصابه خير هنّأته .
وإن مرض عدته .

---

(١) الفقه الاجتماعي: ص ٥٦١ .

وإن أصابته مصيبة عزّيته .
وإن مات تبعت جنازته .
ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلاّ بإذنه .
وإذا اشتريت فاكهة فاهدها له .

وإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج ولدك يغيظ بها ولده .

ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرق له منها »[1] .

.. نستخلص من هذين الحديثين : الدقة البالغة في احترام وضع الآخرين وحاجتهم ومشاعرهم ، ومراعاة الوضع النفسيّ والمعيشيّ حتى فيما يتعلق بخروج رائحة الطعام من فناء البيت لتصل إلى البيت الآخر العاجز عن إيجاد هذا النّوع من الطّعام ، ومشاهدة أنواع الفواكه والحلوىٰ في أيدي الصغار ، رحمة بالصغار الضّعفاء الذين لا يقدرون على شراء هذا النوع لأبنائهم لما فيها من إيذاء بالغ لمشاعرهم ونفسياتهم ، واضطراب حالهم .

إن الحديث الأول أتىٰ بمدلولات كثيرة ومعان عديدة حول ما نحن بصدده من مبحث جاء في الحديث من الحق

---

(١) ميزان الحكمة : ج ٢، ص ١٩٥ .

الخامس على المسلم : (أن لا تشبع ويجوع ، ولا تروىٰ ويظمأ ، ولا تلبس ويعرىٰ) .

إن الشخصيّة الآدميّة الماثلة بشكل حرفيّ للتوجيهات الإسلامية تخرج عن حدود ذاتها ، وتُكسر روح الأنانيّة ، وتشرك معها ضمن اهتماماتها ، الآلام وهموم الآخرين ودموعهم ، فلا تطبق لها عين ، ولا يغطّ لها جفن ، وهناك من لا يجد مأوىٰ أو ملبس ليقي نفسه حرارة الصيف وبرودة الشتاء ، بل لا يجد كسرة خبز ليسد بها رمق الجوع ، فهي بذلك مطبقة للحديث القائل : « ليس منّا من نام شبعان وجاره جائع » .

فالشخصية بدعمها : المعنويّ والماديّ قادرة علىٰ انفراج حالة الكبت والألم والمرض عند الآخرين في المجتمع ، وهذا ليس أمراً مستحسناً فحسب ، بل هو واجب عليها القيام به وتأديته ضمن دائرة الواجبات الاجتماعيّة المفروضة .

***

رابعاً ـ اضطراب الوضع الاقتصادي :

إن الانتقال السريع من حالة الغِنى والثراء إلى الفقر

الفاحش ، أو العكس . . يحدثان اهتزازات عنيفة على سلوك الشخصية وسماتها الخلقيّة ، فتحدث تغيرات في مفهوم القيم والمبادىء والأخلاق وتحدث تقلّبات نفسيّة واجتماعية واقتصاديّة ، نتيجة هذا الانتقال المفاجىء في الوضع المالي .

فالفقير فقراً فاحشاً وعندما ينتقل بشكل مفاجىء إلى صاحب ثروة ونفوذ وممتلكات ، سرعان ما تبرز على سلوكه سمة الجشع والطمع ، فيبدأ بعملية الاستهلاك والبذخ في كل شيء ، فيما يحتاجه ، وما لا يحتاجه ، أما الآخر من ينتقل بشكل مفاجىء من حالة الرّخاء والثروة إلى حالة الفقر المدقع ، فسرعان ما يبرز على سلوكه سمة وضيّة وهي سمة (الحرص والبخل) وهي سمة غير طبيعية تؤثّر سلباً على الشخصية وعلىٰ من يحيط بها من بيئتي البيت والمجتمع .

وخير مُعبّر لما قصدت ما حدث من تقلبات في الوضع الاجتماعي والاقتصادي لمجموعة الدول النفطية .

[فقد ترافق تزايد الإمكانات الماديّة لأفراد مجتمعات النفط العربية مجموعة من الظاهرات والمتطلبات والمظاهر التي لم يكن لها عهد بها من قبل :

ـ لقد أصبحت هناك زوجات يصدرن على حصولهن علىٰ حصّة من الثروة ، وقد تحدثت صحف الكويت عن حالات حصلت فيها بعض السيدات على نفقة شهرية من أزواجهنّ ، على الرغم من أنهنّ كنّ لا يزلن مقيمات معهم ، فلقد قضت محكمة الأحوال الشخصية بأن يدفع الزوج لزوجته نفقات المأكل والملبس وأعطيت الزوجة حرية إنفاقها على احتياجاتها الخاصة ، وقالت المحكمة : إن هذا الإنفاق جائز شرعاً .

ـ دخلت عادة الاحتفال بالمناسبات الخاصّة بأفراد الأسرة ، مثل عيد الزواج ، عيد ميلاد الأنجال ، والخطوبة . . . . ولو كان الأمر عادياً ويبقىٰ ضمن حدود المناسبات الخاصة لما طرح أية تساؤلات ، أما أن تجري الاحتفالات بهذه المناسبات في فنادق الدرجة الأولىٰ ، وأن تحجز لهذه الغايات ، فهذا يحوّلها من مناسبة خاصّة إلى مناسبة عامّة معقّدة ، يرجىٰ منها أن تكون إطاراً لعرض أنواع الأزياء ، وتقديم أطيب أنواع المأكولات وأشهاها ، واستدراج أثمن الهدايا ، وصارت الهديّة تشكّل إحراجاً لبعض الأسر ، لا سيّما إذا دعي أفرادها لحضور أكثر من حفلة في الشهر الواحد .

ـ كما أفرز المجتمع الجديد مجموعة جديدة في العلاقات والظاهرات ، فعرفت ظاهرات : السائق وبناء المدرسة ، والاختلاط وغيرها . وتحوّلت فيما بعد إلىٰ مشكلات فالرجال الذين درجوا علىٰ فكرة الشّرف والسمعة الطيّبة لا يمكنهم أن يتهاونوا في كلّ علاقة مختلطة مهما كان مستواها ، بل يعالجونها بقسوة واضحة وقد يعانون من ذلك أشدّ المعاناة .

السائق أصبح هو الذي يصطحب بنات الأسرة لقضاء حوائجهن ، أو الذّهاب إلى المدرسة ، وتعرض الصحف الأمر علىٰ أنه مشكلة : « تبدأ المشكلة عندما تترك معظم العائلات بناتها يذهبن دون رقيب من الأهل ؛ مع السائق فغالباً ما يزيل حديث النّساء والبنات ستار الكلفة مع السائق ، فإذا زالت الكلفة مع مرور الأيام ، فقد يحصل من الأمور ما لا يحمد عقباه ، ونتيجة لذلك حصل أن اضطر بعض الأولياء لتزويج بناتهم من السائقين][1] .

إن عصر الطفرة أو ما يسمى بالحقبة النفطية : ترك آثاره السيّئة علىٰ الهيكل البنيوي للشخصية بدءاً بالوضع

---

(١) الطفرة والشباب: معهد الإنماء العربي: د. زهير حطب، د. عباس مكّي، ص ٨٠ ـ ٨١.

النفسيّ والسلوكيّ ثم الاجتماعيّ وأخيراً الاقتصاديّ ، فلقد جُند عشرات المختصّين والباحثين في دراسة البنية البيولوجية للأرض ، ومعدلاتها الفائضة من البترول الخام ، وتأثير ذلك على الوضع الاقتصادي ونمائه وتطويره ، والبحث في وسائل الإنتاج وطرق التعامل التجاريّ والصناعيّ ، وإرسال المبيعات والمنتجات النفطيّة والوسائل الحاملة لها . . ومجموعة التكاليف والمصروفات ، ونسبة الفوائد والعوائد من الأرباح و . . و . . ولكنها !

أهملت بشكل كامل . . دراسة الآثار المترتبة ـ من ذلك ـ علىٰ هيكليّة الشخصيّة وعلىٰ قيمها ومُثلها وسلوكها وردود الفعل لديها .

ومن اضطراب الحياة الاقتصادية : الغلاء المطرد في مستوىٰ الأسعار ، وعدم التوازن بين مستوىٰ الدخل . وبين حجم المشتريات ، في الوقت الذي لا تتمكن معه الشخصية من تغطية نفقات المعيشة القاسية في ظروف الغلاء الفاحش ، وفي أجواء يتعسّر فيها وجود الفرص المتاحة للكسب ، أو الزيادة في ساعات العمل الإضافيّة لمحاولة سدّ العجز الماديّ المتزايد ، فأنّىٰ للشخصية من تحقيق التكامل وعدم ميلها إلىٰ الانحراف ، وهي تعيش وضعاً مادياً مترديّاً

يزداد سوءاً بنسبة عالية جداً ، بل وكيف تحافظ الشخصيّة على سلامة وضعها السلوكيّ وهي تفتقد إلىٰ الشعور بالآمان والاستقرار من هاجس اسمه الخوف من حاضر مؤلم ومستقبل مبهم .

والمحصلة . . أن الوسائل الكفيلة بسلامة الشخصيّة وعدم ميلها إلىٰ الانحراف في المجال الاقتصادي هي :

- بروز الحسّ الديني .
- وجود العدل الاجتماعي .
- أفول العامل الأخلاقي .
- استقرار المجال الاقتصادي .

الشخصيّة . . والحصانة من الانحراف

ـ المحور الذاتي :

إن الشخصيَّة الآدمية تواجه ضغوطاً في الحياة الدنيا ، وأبرز هذه الضغوط : الدوافع الفطريّة المتحرّكة في داخلها ، فالدوافع هي من نعم الله عزّ وجل على الشخصيّة ولولاها لما استقامت حياتها شريطة أن يحكمها نور العقل . وإذ جرّدت الدّوافع من نور العقل ، عند ذلك لا تقف في وجهها قيود ، ولا تحدّ من انطلاقتها حدود ، وتصبح حينها

عامل إضرار بدل أن تكون عامل بناء .

فيجب علىٰ الشخصيّة أن تتفهّم هذه الحقيقة لتستطيع أن تتحكّم بمواقفها أمام الأهواء والشهوات ، وأن تتسلّح بالإرادة الواعية أمام المثيرات والمغريات ، فإن الجهل بحقيقة الدّوافع يوقع الشخصية في شراك الخطأ والرذيلة .

يقول الإمام علي عليه السلام :

« إن النفس الأمّارة بالسوء والفحشاء ، فمن ائتمنها خانته ، ومن استنام إليها أهلكته ، ومن رضي عنها أوردته شر المورد »[1] .

وقال عليه السلام أيضاً :

« إن نفسك لخدوع أن تثق يقتدك الشيطان إلى ارتكاب الجرائم »[2] .

وقال عليه السلام أيضاً :

«إن هذه النّفس الأمّارة بالسوء فمن أهملها جمحت به إلى المآثم »[3] .

---

(١) ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ١٣٠ .
(٢) ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ١٣٠ .
(٣) ميزان الحكمة: ج ١٠، ص ١٣٠ .

ـ المحور الاجتماعي :

إن الشخصيّة التي لا تتمكّن من السيطرة علىٰ شهواتها ، ولا تمتلك القدرة لتتحكم بالغرائز المتحرّكة في أعماقها ، هي المتهمة دون سواها بإثارة الإرباكات في المحيط الإجتماعيّ ، ولأن هذه الشخصيّة خسرت الرّهان مع ذاتها ، فهنا يأتي دور المجتمع بتقويم سلوكها ، واعتدال مواقفها من أجل تحقيق الأمن والسلام والحرية لأبناء المجتمع ككل .

ويكون ذلك تحت ظروف المكافأة والتشجيع حيناً ، والتعزير والعقوبة حيناً آخر ، أمأ ما يدل على المكافأة والتشجيع .

فقد عفىٰ أمير المؤمنين علي عليه السلام عن شاب سارق ، قال له :

ماذا تحفظ من القرآن ؟

قال : سورة البقرة .

قال عليه السلام : « عفوت عنك لسورة البقرة . . » .

وأما ما يدل علىٰ التعزير والعقوبة بقدر الضرورة كمّاً وكيفاً .

قال تعالىٰ : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً * فاضرب به ولا تحنث .. ﴾ سورة ص ، الآية : ٤٤ .

وهذا يتمثّل في كلّ المؤسسات الاجتماعيّة ، بدءاً بالأسرة والمؤسسة التعليميَّة كالمدرسة والمراكز الثقافية والمهنيّة ، والمؤسسة الإصلاحيّة كالسجون ودور الإصلاح والرعاية الخاصة وغيرها .

أما حينما تبالغ الشخصيّة المرضية بإيذاء الآخرين وإلحاق الضرر بهم ، فإن مسؤولية المجتمع هي : مقاصته لتصلح في نفسه منبع الشر والفساد ، وتردعه عن غيّه ، وتضع حداً فاصلاً لاعتدائه ، وترجعه عنصراً صالحاً في مجتمعه يساهم في بنائه ونهضته .

قال تعالىٰ :

﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب . . . ﴾[1] .

ففي القصاص الحياة الكريمة لكل أبناء المجتمع ، بل والإنسانية جمعاء ، والشعور بالأمن وإصلاح للفساد ،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩ .

والمحافظة على المجتمع من هذه الدنائس والشرور .

ولأن القصاص تطهير للمجتمع فإن حدَّه هو المقاصة بالمثل دون الزيادة ، لأن الزيادة هي اعتداء جديد يحتاج معه إلى إجراء قصاص جديد وهكذا .

قال تعالىٰ : ﴿ . . . ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ، البقرة/ ١٩٠ .

وقال تعالىٰ :

﴿ . . . فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم. . . ﴾ البقرة/ ١٩٤ .

الفهرس

الاهداء ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول: سيكولوجية الشخصية ١١

الفصل الثاني: الشخصيّة المرضيَّة والدوافع النفسيّة ٤٧

الفصل الثالث: الأسرة وشذوذ الشخصية ٦٩

الفصل الرابع: المجتمع وشذوذ الشخصيّة ٨٩

الفصل الخامس: الشخصية والانحراف الأخلاقي ١١١

الفصل السادس: الشخصية والانحراف الاقتصادي ١٤١



الرويس ـ خلف ستر محفوظ وحجاري ـ بناية محمد الشريف
ت ٨٢١١٤٢ ـ ٨٠٦ ـ ٨٢٣٥٢٦ ـ ٨٢٣٠٨٩ ص ب ٩١ ٢٥ و٥٧٩٩ ١١٣ بيروت لبنان